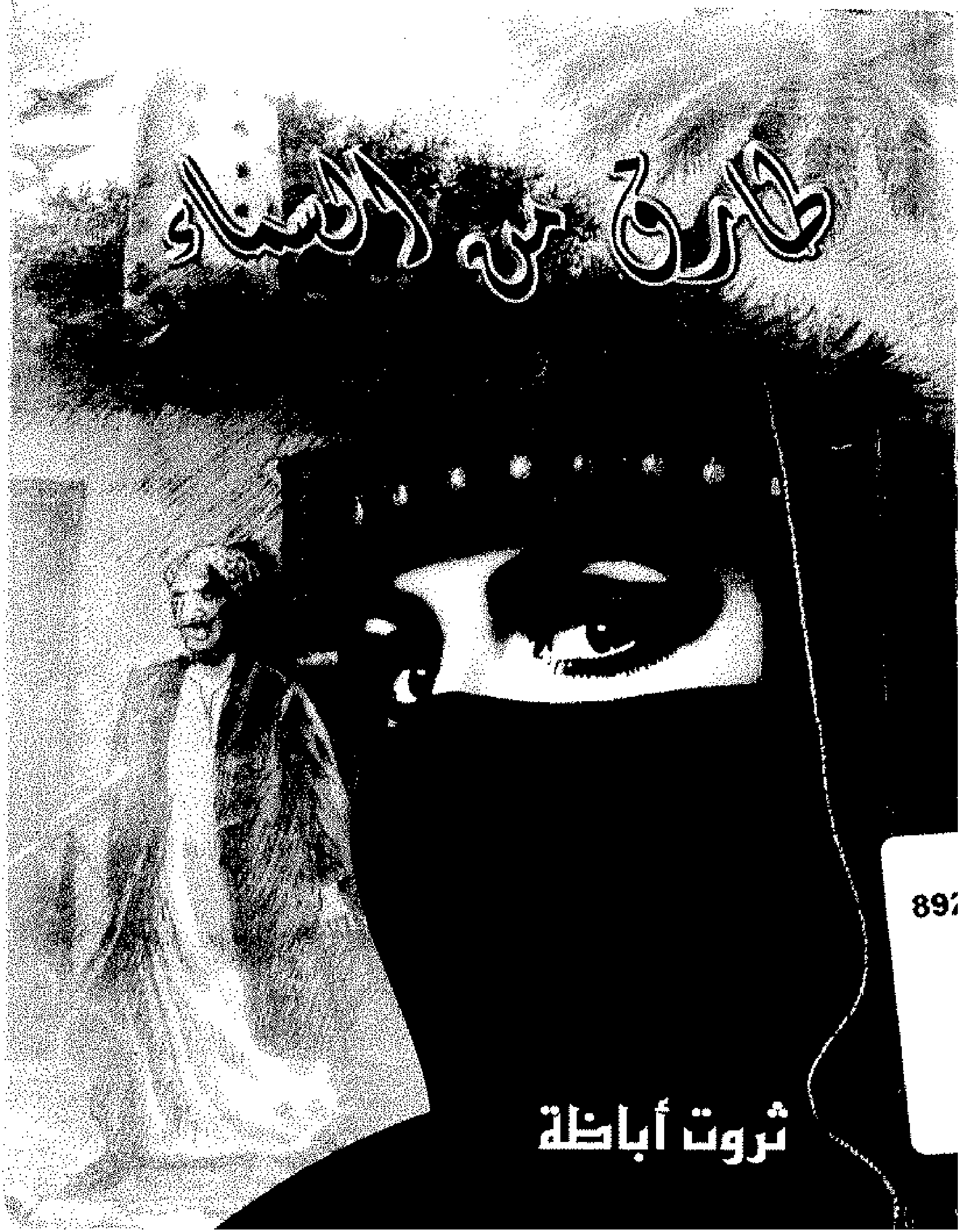

طارق من السماء
ثروت أباظة

طارق من السماء

رواية بقلم

ثروت أباظة

الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

ت : ٥٩٠٨٩٢٠

— ١ —

كانت ولادة لم يشهد التاريخ لها مثيلا .القلوب واجفة والنفوس هالعة والعيون زائغة والأم تكتم صرخات الوالدات التى تطلقها كل أم تلد لتعلن إلى العالم قدوم إنسان جديد إلى الحياة . وعملية الولادة تقوم بها جدة الطفل القادم فمجيء القابلة إعلان وهم يحرضون على الكتمان غاية الكتمان .

الصمت يضرب بخيامه على المنزل جميعا فالحديث همس والخطى تلمس الأرض لمسا ولا تجرؤ أن تطأها وطأ .

وحول البيت رجال شداد غلاظ يتسمعون ويراقبون فهم يعلمون أن موعد الولادة قد حان . فإن يكن أهل بيت الوليد يتكتمون فى يوم مولده خبر الولادة فإن مقدمات الولادة هيهات لها أن تختفى فى قرية كل نبأ فيها معلن وكل همسة صيحة ، وكل حركة خبرها ذائع شائع . فكيف لأم حامل أن تخفى حملها .

إنها قرية نائية عن الدنيا وتكاد تبتعد عن الزمان . من قرى الصعيد القاصية من أرض أسماها الذين نزلوا بها فى أول نشأتها بنى عمران . وليس فيها من العمران شيء . جهلها التقدم الذى عرفه العالم وظلت على حالها من يوم نشأتها منذ قبل الميلاد إلى يوم ميلاد الطفل الجديد . تكاد لإغراقها فى الجمود إذا الأرض دارت بها لم تدر .

أما الطفل الذى يجيء اليوم فأبوه إبراهيم آدم . نال أبوه ثأر ابنه وهدان الذى قتلته أسرة حمدان لتثأر هى أيضا لقتيل لها اتهموا فيه

وهدان . واضطر آدم أن يقتل سليم حمدان ليرفع رأسه فى القريـة ، وما كـاد يرفعه حتـى قتلتـه أسـرة حمدان ولم يستطع إبراهيـم أن يسكت عن ثأر أبيه فسارع إلى زعيم أسرة حمدان فقتله .

وقبل أن تقتل أسرة حمدان إبراهيم عاجلته السماء بموت ربـانى فوت على أسرة حمدان ثأرها فأقسم رجال الأسـرة أن يقتلوا وليد إبراهيم المنتظر إن كان رجلا وهكذا تحلق رجال أسرة حمدان حول بيت إبراهيم ينتظرون الولادة بآذان مرهفة وعيون طلعة تكاد تخترق الجدران اختراقا .

فكان لابد لأسرة إبراهيم أن تعيش الأيام السـابقة علـى الـولادة منعزلة على العالم تجهز لليوم الموعود سرا .

وكان لابد للولادة نفسها أن تتم فى هذا الصمت المطيـق الـذى تمت به . وقد كانت كل خشيتهم أن يعلن المولود الجديد ما تجـاهد أمه فى كتمانه . وما تبذله من ألم يفوق طاقة البشر فى سبيل هـذا الكتمان .

وولد الطفل وقبل أن يطلق الصرخات التى يلقيها كل طفل فـى وجه الحياة سارعت أخته عزيزة ووضعت يدها على فمه فحرمته أن يعلن الحياة بقدومه .

تمت الولادة فى صمت كما أراد لها بيت إبراهيم آدم . ولكنهم كانوا يعرفون أن ما يسترونه اليوم وما قد يخفونـه يومـين آخريـن أو ثلاثة لابد أن ينكشف . فلم يكن غريبا أن يعدوا للأمر عدته .

* * *

في الموهن الأخير من الليل خرجت عزيزة تحمل أخاها وهي تضع يدا لها على فمه وتلفه باليد الأخرى بخمارها الذي يغطي رأسها ويغطي أخاها في آن معا .

وركبت عزيزة مركبا صغيرا أعدته من أيام وأخفته في الأحراش الكثيفة التي تحيط بترعة الرادين . وجرى المركب في الماء يجري وانيا هامسا كأنه وشوشة أمواج لشاطئ ، فقد كانت عزيزة تلمس الماء بمجدافها لمسا هينا لا يعلو لها صوت . حتى إذا بلغت مشارف قرية التمرة أرست مركبها وتلفتت حواليها في حذر وخشية ونزلت إلى الشاطئ . وفي الخص الذي أقامته في الصباح وجدت الحمار حيث تركته فركبته وهي تحتضن أخاها في حدب حريصة دائما ألا يصدر عنه بكاء يفضح هربها به .

الليل ستار . والناس بعد نيام فلا بأس عليها أن تخترق شوارع القرية وهي آمنة بعض الأمن ، وكان بيت العمدة في جوف القرية والطريق إليه يخترق الكثير من الدروب . وكلما أوغلت في الطريق اقتربت من الأمن حتى بلغت بيت العمدة وقلبها يوشك أن يقف من الخوف .

وطرقت الباب طرقا رقيقا فكأنها طارق من السماء مرة وأثنتين وثلاثا . ثم انفتح الباب واستقبلها العمدة .

ـ هل أتيت به ؟ حسنا .

ـ هل أدخل ؟

ـ بل انتظري .

ـــ ماذا ؟

إن زوجتي سافرت إلى أسوان عند أختي منذ اتفقنا ، بعد أن اعلنت هنا أنها حامل .

ـــ إذن .

ـــ إذن لابد أن نسافر بالطفل إلى أسوان لتعود به زوجتي ونعلن أمره إلى الناس .

ـــ ولكن الطفل يحتاج إلى رضاعة .

ـــ ادخلي فأرضعيه .. هل معك ما ترضعينه به ؟

ـــ نعم .

ـــ إذن فأرضعيه وأسرعي حتى أنادي سائق السيارة ونسافر .

وسرعان ما أخذت السيارة طريقها إلى أسوان وكان الفجر يرسل أشعته الأولى إلى الطريق .

وصلت السيارة إلى أسوان والنهار يملأ الدنيا ، وقال العمدة لعزيزة :

ـــ ابقي حيث أنت .

ـــ لماذا ؟

ـــ لآتي بزوجتي ونعود .

ـــ ألا تعرف أختها بالأمر ؟

ـــ بل تعرف .

ـــ فمالي لا أنزل بالطفل حتى أرضعه وأريحه بعض الشيء ونعود به وقتما تشاء ، فلم يعد في الأمر عجلة .

ـ معك حق ... انزلى .

وجاءت الأم المزيفة واستقبلت ركب ابنها الذى لم تلده ، ورفعت عن وجهه الدثار وأشرق وجهها بابتسامة عريضة .

ـ بسم الله ما شاء الله .. حلو هو كالقمر ....

وقال العمدة :

ـ أرينى ابنى هذا الذى لم أنجبه .... سبحان الخلاق العظيم . فى وجهه سمو .

وسارعت زوجته قائلة :

ـ واسمه سامى . إن شاء الله .

ثم نظرت إلى أخته .

ـ هل ستبقين معه ؟

ـ إذا أردت .

ـ حسنا ، ولكن هل سبق لك أن رعيت طفلا ؟

ـ الحقيقة لا .

ـ إذن ؟

ـ هل تريدين له من ترضعه ؟

ـ ياليت .

ـ أعرف فى بنى عمران أما فقدت رضيعها وهى فقيرة ، وأستطيع أن آتى بها لترعاه وترضعه .

ـ على بركة الله . ولكننى أحببتك ... لماذا لا تبقين مع المرضعة وتساعدينها فى رعاية سامى ؟

ـــ وأنا والله أحببتك يا ست هانم منذ رأيتك أول مرة حين اتفقنا على إحضار الطفل لك . وما أحب إلىّ أن أبقى فى بيتك . فنحن لم يعد لنا فى بنى عمران شيء يستحق أن نبقى إلى جانبه . الفدانان سيزرعهما خالى .. المهم أننى أحب أن أبقى معك ومع المحروس سامى .

وعاد الركب الذى خرج متخفيا من التمزة فى باكر الصباح ، وبلغ بيت العمدة قبل أن تغرب الشمس وأعلن عن عودته بالزغاريد بالدفوف والمزمار .

لقد أنجب العمدة ولدا بعد أن ظل عشر سنوات محروما من النسل .

وكما استطاعت عزيزة أن تهرب بالطفل استطاعت أن تدبر لأمها مهربا ولكن بطريقة مختلفة كل الاختلاف . فقد أدركت أن أمها بعد الولادة التى لم يعرف بأمرها أحد أصبحت هيأتها غير تلك التى يعرفها عنها المترصدون لها . وإمعانا فى التنكر ألبست أمها ملابس خالها وخرجت بها بعد غروب الشمس بقليل ، حتى يرى الرائى فيها جسما ولا يستطيع أن يتبين وجها . وجازت الحيلة وبلغت الأم مأمنها لترضع وليدها الذى أصبح ابن العمدة . أصبح اسمه سامى زين الرفاعى : فاسم العمدة زين واسم أسرته الرفاعى .

ولكن الأم تعلم أن الذى ترضعه هو وليدها وهى بهذا قريرة العين هانئة . وليكن اسم أبيه بعد ذلك ما يكون ما دام قد نجا من أعداء أبيه وكتبت له الحياة .

— ٢ —

عاشت رتيبة أم سامى عيشة هانئة فى بيت العمدة قريبة غاية القرب من زوجته حميدة . وكانت عزيزة فى البيت هى مديرته التى تقوم بكل شأنه . وسرعان ما أصبحت الأم وابنتها صديقتين لأهل القرية جميعا ، وقد اتفقت الأم وابنتها أن ينتسبا إلى قرية المهاجرة التى تدخل فى إطار محافظة المنيا البعيدة كل البعد عن محافظة أسوان . ولم يحاول أحد من نساء القرية ولا من رجالها أن يستقصى أمرهما فما دار بذهن أحد أنهما تكذبان . واستقر الحال على هذا ومضت الأيام رخاء . رتيبة ترضع وليدها وحميدة ربة البيت تقربها إليها فى حب وحدب وعطف ، وهما تقضيان وقتهما فى أحاديث لا تنفد وتمدهما سيدات القرية بمدد من أسباب الحديث لا ينقطع .

والعمدة أصبح لا يرى زوجته إلا وفى رفقتها رتيبة . ولم تستطع رتيبة أن تغفل النظرات الراغبة التى كانت تطل فى إصرار من عينى العمدة زين الرفاعى . وكان كيانها يضطرب أشد الاضطراب حين تلح عليها هذه النظرات ، فقد كانت تخشى كل الخشية أن يتجاوز العمدة النظرات التى تصدر عنه على رغم أنفه إلى محاولات أخرى تفسد عليها هذه الحياة الهانئة التى تحيا والتى لم تكن تتمنى خيرا منها . وماذا يمكن أن تأمل أم ابنها مهدد بالثأر أكثر من هذه الحياة التى تحياها مع ابنها وابنتها فى ظلال كريمة من

عطف الست حميدة . وقد كانت رتيبة تحمل لها مع الاعتراف بالفضل حبا لا ينتهى مداه . فقد كانت أخلاق حميدة رضية سلسة لا عنف بها ولا كبر . وكانت طيبة عن سجية مواتية فى غير افتعال ولا منّ . وقد أحبت سامى حب أم لوليدها حقا . وكانت رتيبة من الذكاء والفطنة بحيث لم تذكرها قط بأن سامى ربيبها وليس وليدها . ولم يجر هذا على لسانها حتى ولو كانتا فى مأمن كامل من العيون والآذان .

وكانت رتيبة تحرص دائما أن تضع الطفل فى حجر أمه فى غير أوقات الرضاع آملة أن يعمق احتضان حميدة له مشاعر الأمومة الفطرية التى لم تعرفها حميدة فهى لم تكن له أما . فلا هى حملته ولا ولدته ولا أرضعته وهى مع ذلك هى أمام العالم أجمع أمه .

ومع الأيام أوشكت حميدة أن تنسى أنها ليست أمه بل وأوشك زين الرفاعى أن ينسى أنه ليس أباه . لم يكن ينغض حياة رتيبة إلا هذه النظرات الهاربة من عينى العمدة والتى كانت تتقيها بالتجاهل التام . وكان ينغصها أيضا ما تقوله له النسوة إذا جلسن إليها بعيدا عن حميدة . فقد عرفت رتيبة أن العمدة ظالم جبار . جشع غاية الجشع فى معاملته للناس . نهاز للفرص فى جمع المال . وكانت رتيبة تدهش مما يفعله العمدة . أيكون جمع المال غاية فى ذاته ؟ لمن يجمعه ؟ . لطفل هو يعلم حق العلم أنه ليس ابنه ولا هو أباه . كاذب ذلك الذى يقول إن الإنسان يحرص على المال من أجل أبنائه . إنما هو النهم فى جمع المال . مرض قائم بذاته يصيب الإنسان

فيخرب نفسه . حتى وإن لم يكن له ولد . وما الولد عند هؤلاء إلا حجة منهارة لا صحة لها . وإن جازت هذه الكذبة على الناس الذين يشهدون سعادة زين الرفاعى فى جمع المال ، فما كانت هذه الكذبة لتجوز على رتيبة التى ولدت سامى والتى تعرف من سره ما لا يعرفه فى القرية أحد .

* * *

كانت حجرة رتيبة فى جناح من البيت قصى ، وكانت عزيزة تبيت معها فيها . وما كان أحد يعرف أن عزيزة ابنتها . وهكذا قضى الله على رتيبة أن تكون أمومتها — وهى أمومة شرعية — مستورة مستسرة عن الجميع لا يعرفها أحد من البيت الذى تعيش فيه أو من القرية التى تحتوى هذا البيت .

وفى يوم بينما كانت الشمس ترسل شواظا من نار على القرية ، وفى فترة الظهيرة التى لا يطيق أحد فيها أن يترك السقف الذى يحميه من سعير الحر ، وكانت رتيبة وابنتها عزيزة تنالان قسطا من الراحة فى فترة القيلولة . وكان العمدة فى حجرته مع زوجته . وكان سامى فى سريره بالغرفة المجاورة لهما .

بلغ أذن رتيبة صوت طرق واهن على شباك حجرتها . وتعجبت فهى لم تتعود أن يطرق أحد شباكها . بل ولم تتصور أن أحدا يجرؤ أن يطرق شباكها فى بيت العمدة بهذه الطريقة الهامسة . صمتت حينا فتوالى الطرق . أيقظت عزيزة . وساد الصمت لحظات ثم عاد الطرق وسمعتاه معا . ما هذا ؟

ـ من ؟

قالتاها معا وجاءهما صوت مرتعد .

ـ أنا .

ـ أنت من ؟

ـ أنا صميدة .

وقالت رتيبة وصوتها فى طريقه إلى الارتفاع .

ـ صميدة ؟ ! صميدة من ؟

ـ أنا فى عرضك أخفضى صوتك .. أنا صميدة الدهوتى .

ـ ماذا تريد ؟

ـ أنا واقع فى عرضك يا ست رتيبة .

ـ من أين تعرفنى أيها الرجل ؟

ـ من سيرتك فى البلدة . الجميع يمتدحك . وأنت أقرب واحدة من الست حرم العمدة .

ـ ماذا تريد ؟

ـ أختى ...

ـ مالها أختك ؟

ـ يريد العمدة أن يزوجها غصبا عنها .

ـ والعمدة ما شأنه بأختك ؟

ـ الرجل الذى يريد الزواج منها دفع له مبلغا كبيرا .

ـ مبلغا كبيرا ؟ من هذا الرجل ؟

ـ الشيخ دهشور الملوانى ، سمعنا أنه دفع له ثلاثمائة جنيه .

— وأختك لا تريده ؟

— إنه رجل عجوز تخطى السبعين من عمره وأختى فى السادسة عشرة من عمرها . وابن عمها خطيبها منذ هما أطفال . أختى ستموت مني يا ست رتيبة أنا فى عرضك .

— وماذا يستطيع العمدة أن يعمل ؟ زوِّجها لابن عمها ولن يستطيع العمدة أن يصنع شيئا .

— ست رتيبة . ألا تعرفين ماذا يستطيع العمدة أن يعمل ؟

وجدت رتيبة الفرصة مواتية لتتأكد مما ترويه لها النسوة عن العمدة .

— ومن أين لى أن أدرى ؟

— لك الآن معنا فترة ليست قصيرة ولا تدرين .

— أنت تعرف أننى لا أترك بيت العمدة ولا أزور أحدا من نسوان البلد .

— ولكن نسوان البلد جميعا يزرن بيت العمدة ويأنسن إليك ولا بد أنهن قلن لك ماذا يستطيع العمدة أن يعمل .

— كلام نسوان لا أصدقه .

— إن لم أزوج أختى من دهشور الملوانى فمعنى هذا أن تقتل أختى صبيحة ويقتل ابن عمها شملول القط ، ثم أقتل أنا .

— ماذا تقول ؟

— ما سمعت يا ست رتيبة .

— هل يعقل هذا ؟

— أتريدينني أن أفهم أن الست حميدة وأنت لا تعرفان شيئا عن رجال العمدة القتلة ؟

— أتتصور أننا نعرف ؟

— أما أنت فنعم يخيل إليّ أنك تعرفين .

— وافرض . فهل أجرؤ أن أقول هذا لزوجته ؟

— طبعا لا .

— إذن ففيم مجيئك إليّ ؟

— كلمي العمدة نفسه .

— هل أجرؤ ؟

— إنك مرضعة ولده . وهو يعلم أن الست حميدة تحبك كل الحب ، وقد يخشى أن تكشفي للست حميدة ما يحاول أن يستره عليها .

— أنا أكلم العمدة ؟

— حياة أختي بين يديك يا ست رتيبة .

— نحاول يا صميدة . امش أنت الآن واترك لي الموضوع .

— أمرك .

قالت لها عزيزة :

— ماذا تنوين أن تفعلي ؟

— والله لا أدري يا بنتي .

— الرجل وضع أمله فيك .

— سأرى .

* * *

صحا العمدة من نومه وذهب إلى حجرة ولده يتناول قهوته هناك وترك زوجته في سريرها بين نائمة ومتيقظة . كانت رتيبة جالسة على الأريكة وسامي في حضنها يحرك أطرافه في جذل بعد أن رضع وارتوى . رنا زين الرفاعي إلى جمال رتيبة .. كان يرى في وجهها نورًا وإشراقًا ، ورأى في عينيها وهي تنظر إلى سامي نظرات ساجية هائمة، ووجد نفسه ينظر إليها كامرأة بعد أن كانت عنده مرضعة سامي . طويلة القامة موفورة الجسم في غير استرخاء ، هادئة السمات تشعر من يراها بالطمأنينة .

نظر إليها لحظات ثم قال لها :

ـ هل رضع ؟

وقالت في سعادة .

ـ ألا ترى سعادته .

ـ أعطيه لي .

ـ تفضل .

وحمل سامي وقامت هي واقفة فقال لها :

ـ بل اجلسي مكانك يا ست رتيبة .

وجلست وراح هو يناغي سامي ويداعب وجهه ، وانتهزت هي الفرصة ..

ـ سيدي العمدة .

ـ نعم يا ست رتيبة .

ـ قصدتني امرأة برجاء عندك .

ـ من هى ؟

ـ طلبت إلىّ ألا أذكر اسمها عندك .

ـ وماذا تريد ؟

ـ أن تتزوج صبيحة من ابن عمها شملول القط .

وانقلب وجهه الضاحك إلى أنواء عاتية من الغضب والسخط ، وصاح دون أن يرتفع صوته :

ـ من تلك التى طلبت منك هذا ؟

ـ لا تغضب يا سيدى العمدة . كأنى لم أقل شيئا .

ـ هل عرفت حميدة شيئا عن هذا الموضوع ؟

ـ لا وشرفك .

ـ إذا عرفت فستكونين أنت التى قلت لها .

ـ لن تعرف .

ـ ولا أسمع شيئا عن هذا الزواج منك .

ـ أمرك .

ـ خذى الولد .

ـ أمرك .

وأعطاها الولد وخرج دون أن يشرب قهوته .

مشاعر شتى متباينة داخلت قلب رتيبة . هذه النظرات الجائحة أرهبت جوانبها . وهذا الوجه الحديدى الملامح الذى ارتمى على جبين العمدة . وهذه الأنياب المكشرة .. ما هذا ؟ أيمكن للإنسان أن يكون عدة آدميين فى كيان واحد ؟ ألقت إلى وجه ابنها نظرات

فارغة ساهمة تحمل فى طواياهـا حيرة ورعبا مـن المستقبل . ومـا لبثت أن فكرت فى ابنها هذا الذى يبتسم فى سعادة غـامرة . مـاذا يحمل لك الغد مع أب هذه سماته تنقلب إلى حـوالج ذئـب ، وهـذا خلقه ينشب فى أرواح الآدميين فى قريته يدا فراسة تعتصر دمـاءهـم فى غير رحمة ولا مهادنة .

تائهة هى حائرة خائفة . يثقل على قلبهـا أن رجاءهـا فـى شـأن صبيحة قد خاب . ما لهذه الدنيا تجور على أبنائها . وما لقوم كـأن أكبادهم من فولاذ جامد .

وقبل أن تفيق سمعت فـى البيـت ضجيجـا وأصواتـا متسـارعة ، وانقضت عليها ابنتها عزيزة .

ـ أمى .

وذعرت رتيبـة فـى هلـع آخـذ وقـد أخطـأت ابنتهـا فـى ندائهـا وأوشكت أن تكشف المستور من علاقتها بها ، ولم تملك نفسها أن صاحت بها فى غير وعى :

ـ اخرسى .

وفى لحة تنبهت عزيزة إلى خطئها وتلفتت حولها وعـادت تقـول فى بهرها لا تزال .

ـ الحقى يا أمه رتيبة .

ـ هل جننت ؟

ـ جاءت سليمة . لم يسـمع أحـد . أسـرعى إلى الست حميـدة إنها فى حالة سيئة .

وهمت رتيبة فى جد :

ـ مالها ألف سلامة لها . ماذا بها ؟

كانت حميدة شاحبة اللون لاهثة تصيح :

ـ هواء .... هواء .

وقالت لها رتيبة :

ـ ألف سلامة يا ست حميدة .

ـ صدرى يا رتيبة : كأن يدا تقطع فيه بسكاكين حادة .

ـ بعد الشر عنك . العمدة .. أين العمدة ؟

وما لبث العمدة أن دخل ، وقبل أن يسمع شيئا صاحت به رتيبة :

ـ نريد طبيبا من البندر فورا .. فورا يا حضرة العمدة .

* * *

وجاء الطبيب وأعلن :

ـ إنها أزمة قلبية .

* * *

الليالى الحالمة ، والأيام المشرقة المعطرة بأريج الحب منذ هما طفلان فى مرح الصبا الغض ، ويدها فى يده وهو يذهب بها إلى كتاب القرية ثم إلى مدرستها وكانت تعطيه يدها فى بلاهة الطفولة ونصاعتها . ومع مرور السنين أحست أن يده بدأت تضغط على يدها ، ثم تواتر الضغط وأحست يدها أن جديدا لا تدريه يشب بين يدها ويده . شيئا ثالثا استشعرت له في قلبها وجيبا غريبا على القلب البرىء . ثم سمعت من لقاء يدها بيده حديثا حلوا ونغما ذا أغاريد ، ومعانى كلها عذب فهى نشيد ، وكلها طروب فهى رقص ودفوف وناى وعود .

وفجأة قال أخوها صميدة :

ـ منذ الغد لا مدرسة لك يا صبيحة .

وانعقد لسانها .. أيكون قد سمع همس يده إلى يدها . أتكون الأناشيد العذاب قد بلغت أذنيه .. لم تجادل . فقد خشيت أن تطالعها من أخيها الحقيقة . انطوت على أسى . وصمتت على قلب واله . وأطرقت رأسها فى تخاشع . وإن كانت فى نفسها ثورة عارمة . وفى الصباح جاء شملول ليصحبها إلى المدرسة وفاجأه أخوها :

ـ كفى ما تعلمت .

وقال شملول وكأنما مسته جمرة :

ـ كيف ؟!

ـ أنا أخوها .

ـ وأنا ابن عمها .

ـ أنا صاحب الولاية عليها .

ـ لم أقل شيئا . ولكنها مازالت صغيرة . ماذا تعمل فى البيت ؟

ـ كما تعمل بنات القرية تساعد فى عمل البيت .

ـ إنها ما زالت فى الرابعة عشرة .

ـ كان يجب أن تبقى فى البيت منذ سنتين .

ـ صميدة .

ـ نعم يا شملول .

ـ أنا أخطب إليك أختك .

ـ أجننت . إنك قلت منذ لحظة أنها فى الرابعة عشرة .

ـ أتزوجها عندما تبلغ السادسة عشرة .

ـ اسألها .

ورأى صميدة فى عينيها السعادة أعلى صوتا من الحديث .

وقال صميدة لشملول :

ـ أوافق .

وقال صميدة :

ـ نقرأ الفاتحة غدا فى جمع من الرجال .

* * *

وحين بلغت السادسة عشرة انقض عليهم دهشور بسنواته السبعين وأمواله وأفدنته العشرة وقدرته على رشوة العمدة . وحاول

صميدة محاولته تلك . وبدلا من أن يعود إلى رتيبة يسألها عن شفاعتها بلغته الأنباء عن مرض حميدة ، وبينما هو جالس إلى أخته التى أصبحت كعود جف عنه الماء . وهى مطرقة تحاذر أن يرى أخوها ما علا وجهها من قترة وعبوس . دق الباب وقامت صبيحة إليه تمشى وكأن بالأرض أشواكا أو جمرات وفتحت الباب ودخل محمود القط وراءه أخوه الأصغر شملول . ولم يلق أحد منهما السلام وإنما صاح محمود فى همس :

ـــ صميدة ..

ـــ أهلا يا محمود ,, أهلا يا شملول .

وأكمل محمود :

ـــ اسمع يا صميدة ماذا لك فى هذا البلد ؟

ـــ ألا تعرف ؟

ـــ أرضك ؟

ـــ حياتى .

ـــ أشتريها منك .

ـــ ماذا تقول .

ـــ أشترى أرضك وخذ أختك وأختى واذهبوا إلى مصر ، وأرض الله واسعة . ولا الذل الذى نحن فيه .

وبهت صميدة لحظات وأعمل ما سمعه فى ذهنه وكأنما يريد أن ينال مزيدا من الوقت ليفكر وجد نفسه يقول فى صوت ذاهل :

ـــ ماذا تقول ؟

ـ إن لك ولأختك أربعة أفدنة وعشرين قيراطا . ولكما هذا البيت . وكلها ثمنها معروف . هذا هو . واجمعوا ملابسكم وتوكلوا على الله .

كان الإشراق يعود إلى وجه صبيحة طوال الفترة التى تسمع فيها هذا الحديث وكأنه صعود الشمس إلى سمتها فى السماء . وأطرق صميدة هنيهات ثم رفع رأسه إلى محمود .

ـ أتظن العمدة سيسكت عنك .

ـ بل لن يسكت . لقد بعت أرضى أنا أيضا . بما فيها أرضك . بعتها كلها .

ـ لمن ؟

ـ ألا تدرى لمن ؟

ـ لعوض أبو عوف .

ـ طبعا . إنه يكره دهشور الملوانى ويكره العمدة .

ـ إذن .

ـ سافروا أنتم الليلة إلى مصر وهو مشغول بمرض زوجته .

ـ وأنت ؟ !

ـ سأبقى يومين أو ثلاثة حتى أبيع بيتكم وبيتنا .

ـ والله لا بأس .

ـ وقع هذه العقود . . الأرض باسم عوض أبو عوف والبيت باسمى حتى أتصرف فيه .

ووقف صميدة وصاح محمود .

ـ ألف مبروك . هيا لا تضيعوا وقتا . اسمع يا صميدة . خذ هذا ثمن أرضى . أبقه معك .

ـ لماذا ؟

ـ لو حاول العمدة أن يرغمنى على دفع مبلغ له يجدنى لا أملك شيئا .

ـ معقول .. هات المبلغ . ولكن لا تتأخر . إذا لم تبع البيتين فى يوم أو يومين دعهما . ولهما عودة .

ـ توكلوا على الله . انزلوا على بيت مسعود الصاحب .. أو اجعلوه يعرف عنوانكم مع السلامة .

* * *

ورأت حقول التمرة ثلاثة نفر يشقون ظلمات الليل وكأنهم قطعة منه يتركون وراءهم ذكريات أعمارهم وماضى أيامهم وملاعب طفولتهم ورفات آبائهم وأجدادهم ومع دمعة فى عيونهم كانت تتراءى لهم فى ظلمات الليل أضواء أمل فى الغد . وإشراقات مستقبل يرجون الله أن يكون هانئا سعيدا .

* * *

— ٤ —

أطال المرض مكوثه في قلب حميدة . وكان البيت جميعه مشغولا بها . حتى العمدة لم يكن يجلس مع الناس في السلاملك إلا ساعة أو بعض الساعة ثم يرتد إلى داخل بيته يراقب حميدة . فمهما يكن جبارا صلب المشاعر إلا أنه مع ذلك يظل إنسانا .

وبينما زين الرفاعي جالس بالخارج مع بعض زواره من أعيان التمرة قدم إليه خطّاب وفي محياه جهامة لا تخطئها العين . وعلى شاربيه الكثيفين غضبة .

ـ أريدك في كلمتين يا حضرة العمدة .

وكان الجالسون جميعا يعلمون ما صنعه شملول وصميدة ومحمود ولكنهم كانوا يحاذرون أن يعرضوا لهذا الحدث حتى لا يثيروا من العمدة ثائرا الله وحده يعلم ماذا هو مدمر في اشتعاله .

وقام العمدة وأدرك الجالسون ما سيلقيه خطّاب إلى أذن العمدة . فقام بعضهم يلوذ بالفرار من الإعصار المنتظر وأقام بعض آخرون وقد تغلب حب الاستطلاع في نفوسهم على الخشية .

وعاد العمدة وهو كظيم يحاول أن يضع على وجهه قناعا من الجمود ، فتخونه عروق نافرة ونأمات نابضة ونظرات ملتهبة . ولا يقول العمدة شيئا .

* * *

كان محمود جالسا فى بيته متنمرا فقد كان لا ينام الليل متربصا بما قد يصنعه العمدة . حتى إذا لاحت تباشير الصباح كان يختبئ من القرية فى مكان مستور وينام .

كان فى ليلته تلك جالسا يصنع لنفسه كوب شاى يعينه على السهر فإذا هو يسمع حفيف ثوب يحاول أن يتخافت فتحصن وتطلع وانتظر . وفجأة فتح الباب وانطلق الرصاص فسارع محمود يجيب الرصاص برصاص واحتدمت المعركة . وأدرك رجال العمدة أنهم لو استمروا فى المعركة فإنها قد تدور عليهم دوائرها فأمرهم خطّاب أن يتوقفوا واستداروا قافلين إلى حيث جاءوا . وانتظر محمود حتى أشرقت الشمس وقام إلى ملابسه جميعا فوضعها فى جوال وأخذ سمته إلى القاهرة . فليذهب بيته وبيت ابن عمه بددا ولينج هو بحياته .

لم يحاول حتى أن يمر بعوض أبو عوف ليبيعه البيتين أو يوكله فى بيعهما .

انتظر القطار وركبه إلى القاهرة وليدبرها كريم قيوم على عباده .

بلغ صوت الرصاص آذان حميدة . وجزعت وأدرك زين أن أوامره تنفذ فأجابها حين سألت :

ـ لابد أنهم الخفراء يريدون أن أعرف أنهم ساهرون على الأمن .

ـ الخفراء يطلقون رصاصة أو اثنتين .

ــ لعل أحدهم قد أخذه الحماس .

وصمتت حميدة غير راغبة فى اتصال الحوار .

* * *

عرف العمدة أن المهمة التى كلف بها خطّاب لم تنجح فأصدر أوامره أن يصبح البيتان مخزنين لمحاصيله حتى لا يفكر أحد فى شرائهما .

— ٥ —

لم يمض طويل وقت حتى لاقت حميدة ربها . وأصبحت رتيبة مشرفة على البيت . وسارت الأيام فى طريقها على عادتها فما تعنى الأيام بمن يموت ومن يقيم وإنما هى تمضى فى طريقها . وقليلا ما تمضى حتى وجدت رتيبة نفسها فى مواجهة توقعتها منذ وقت طويل وأعدت لها عدتها .

— يا ست رتيبة أنت الآن مسئولة عن سامى ولا يستطيع أحد أن يحل مكانك .

— أعرف ذلك .

— وأنا رجل أحتاج إلى زوجة وأخشى إن أتيت بأخرى إن تضيق بالولد أو تضيقى أنت بها .

— لا بأس أن تجرب .

— ولماذا لا تتزوجيننى ؟

— الحقيقة أننى لا أفكر فى الزواج مطلقا ..

— هل أنت على استعداد أن تتركى سامى ؟

ودون أن تفكر فزعت قائلة :

— لا .. إلا هذا .

وفى دهشة باغتته لحظة ثم ....

— نعم أعرف أنك تحبين الولد ، ولكن لم أتصور أنك تحبينه إلى هذا الحد .

وعادت رتيبة إلى ثباتها .

ــ لقد حملته أكثر مما حملته أمه وأرضعته ولا أعرف لنفسى الآن عملاً آخر إلا أن أكون المسئولة عنه .

وصمت زين قليلا ثم قال وقد أدرك أنه أصبح يملك الموقف .

ــ فإذا جاءت سيدة أخرى فإننى لا أستطيع أن أحميك منها أو أحمى سامى .

وأطرقت وقد أوشكت على الهزيمة .

ــ إنك العمدة .. ولست مثل أى عمدة . إنك تحكم بلدك بيد من حديد .. أتعجز عن أن تحكم امرأة فى بيتك ؟

وفهم زين كل ما ترمى إليه ولكنه قال :

ــ إننى عمدة فى خارج بيتى ولكننى فى البيت زوج ولا يستطيع زوج مهما يكن عمدة أن يفرض مرضعة على زوجته فى بيته .

ــ ولماذا لا تحسن الاختيار ؟

ــ قد تكون قبل الزواج هادئة حليمة ثم تنقلب بعد الزواج جبارة طاغية . وأنت تعرفين المرأة إذا وجدت ابن غيرها هو موضع الرعاية فى بيتها . حينئذ ستعمل أول ما تعمل أن تخرجك أنت من البيت لأنك تؤثرين الطفل عليها ثم هى بعد ذلك تنفرد ...

وقاطعته رتيبة :

ــ نعم .. نعم أعرف .

ــ إذن .

وأطرقت . لقد تركت بيتها وبلدتها من أجل ابنها هذا . وهي لا تحب هذا الرجل ، وهي تكره خلقه كل الكراهية . فالظلم هو الذي قتل زوجها وشتت شملها وأخرجها من بين أهلها وذويها ليرمي بها إلى قوم غير قومها وناس غير ناسها.

إنها كامرأة تدرك أن حياتها لم تصبح شيئا إلا أن تكون أما لهذا الطفل . وقد ضحت من أجله بكل حياتها الماضية . فهل ترى كتب عليها أن تضحي أيضا بحياتها الآتية ؟ وأي مصير يمكن أن تنتظرها به الأيام ؟ وإذا ولدت لهذا الرجل وليداً آخر .

وصاحت دون أن تدري :

ـ لا .

وصاح زين :

ـ أهذا جوابك ؟

ورجعت إلى نفسها وأطرقت .

ـ ألا تترك لي فرصة للتفكير ؟

ـ أنا لم أتعود أن أفعل ذلك . ولكن من أجل خاطرك سأقبل .

وفكرت . ولم تجد لنفسها مهربا . إنها الآن إذا رفضت فسيطردها هو من بيته دون أن ينتظر زوجته المقبلة لتطردها . فإذا كان يرى في مطلبه أن ينظرها انتقاصا له فهيهات أن يرضى من أجبرته أن ترفضه زوجا وهو بعد لن يكون حريصا على مستقبل طفل ليس ولده أكثر من حرصه على كبريائه .

إنما طلبت منه فرصة للتفكير حتى لا تتداعى أمامه فى نفس الجلسة التى طلب إليها فيها الزواج .

لم يكن هناك خيار لرتيبة فهى بين اثنين لا ثالث لهما . إما أن تترك وليدها نهبا لمستقبل لا يعلمه إلا الله وإما أن تقبل الزواج من زين الرفاعى الذى قدر الله أن يحمل وليدها اسمه فأصبح أبا لابنها الذى ليس له بعد الله غيره .

وتزوجت رتيبة من زين بعد أن مر على وفاة حميدة ثلاثة أشهر وحملت رتيبة في الشهر الثانى من زواجها وما لبثت أن ولدت ولدا أسماه مأمون ، وكانت رتيبة فى رعب أن يحل الأبن الحقيقى عند زين مكان الابن المصطنع ، ولكنها أخفت رعبها ولم يناقشها زين في الأمر فهو واثق أنها لا تعلم من أمر سامى شيئا فهو متصور أن سامى عندها هو ابنه وابن زوجته المتوفاة حميدة .

وقد خشى أن تبوح عزيزة بالسر الدفين فانتهز فرصة خلت به وبعزيزة غرفة :

— عزيزة لا أحد الآن يعرف سر سامى إلا أنت .

— نعم يا حضرة العمدة .

— أخت حميدة التى كانت تعرف السر ماتت ولم يبق الآن إلا أنت فإذا عرف السر فجزاؤك سيكون رهيبا .

— أعرف يا حضرة العمدة .

— لا تلومى غير نفسك .

ـ أتصور يا حضرة العمدة أن أعرض نفسي لغضبك وأعرض أخي للتشريد .

ـ رتيبة لا تعرف شيئا .

ـ ومن أين لها أن تعرف لقد أتيت بها يوم أتيت بها لترضع ابن عمدة التمرة بعد أن مات وليدها .

ـ فليظل الأمر كذلك .

ـ سيظل كذلك يا حضرة العمدة . ولا يمكن إلا أن يظل كذلك .

* * *

وحين تأكدت عزيزة أنها في خلوة بعيدة بأمها نقلت إليها هذا الحديث ففرحت رتيبة به وقرت به عينا وزايلها أو كاد رعبها الذي داخلها أن يفوز مأمون بالأمن وينتهي دور سامي كابن لزين . ذلك الدور الذي فرضته عليه الأقدار دون أن يكون له أي رأي في قبوله أو رفضه .

وهكذا كان البيت مكونا تكوينا عجيبا . أم تعلم أنها أم الابنين والفتاة التي تقوم بشأنهما أيضا . وأب ليس له في الثلاثة إلا ولد واحد والأب يخفي سر ابنه المتبني والأم تخفي سر ابنها وابنتها .

وهكذا يستطيع الظلم والجبروت أن يطمس معالم الحياة ويخلط نتائج الأرحام ويخسف عن حياة الناس الشموس التي لا معنى للحياة بغير إشراقها .

وكان أمر زين أمام رتيبة عجبا . فهو فى خارج بيته ذلك الجبار القاسى يقتل وينهب الأموال فى يسر وطبيعة مواتية ، وهو فى البيت أنيس لين العريكة دمث الحديث شديد الحدب على ولديه لا يفضل واحدا منهما على الآخر . وتعجب رتيبة .. إن تكن غريزة الأب ترغمه على حب مأمون فأى نبضة فى قلبه تجعله يرعى سامى بهذا البر وذلك الحب والحنان ؟ سبحانه . لا يملك أحد أن يجعل قلب هذا الرجل يلين لغير ابنه إلا الله وحده ، وإن له فى ذلك لحكمة لا يعلمها إلا هو ، إن له لغاية يطويها سبحانه فى خفايا السنين .

* * *

بدأ سامي يذهب إلى الكتاب و لم يمض سوى عام وبعض العام حتى لحق به مأمون ، وقليلا ما مكثا في الكتاب فما ذهبا إليه إلا تنفيذا لرغبة أنشبت براثنها في نفسه أن يتعلم ولداه القرآن . وازداد عجب رتيبة وإن كان صدرها قد انشرح لتمكن هذه الرغبة من زوجها . وازداد يقينها أن الله يهيئ الابنين لقدر بعيد كل البعد عما يسير فيه أبوهما .

وعجب زين الرفاعي من سرعة حفظ سامي ومأمون للقرآن ، واستجابة كل منهما استجابة نورانية لآيات القرآن الكريم . وكان سامي يمتاز بشيء لم يشهد له زين ولا أحد من أبناء القرية مثيلا .

فقد كان يحلو لأبيه أن يطلب إليه أن يرتل شيئا من الذكر الحكيم ، وكان سامي يسارع إلى الاستجابة . وكان الأب يجد نفسه يحس في صوت ربيبه خشوعا تحف به أجواء إلهية سامقة ، ولا يملك ذلك الجبار السفاح دموعه فإذا هي تتبادر مترسلة من عينيه .

وقد كان زين يحسب أن هذه الدموع لا تطفر إلا من عينيه وهو يرى ربيبة قد كبر وأصبح يقرأ القرآن . إلا أنه في يوم كان يجلس بالدوار وكان الديوان مليئا بالزوار مكتظا بالقادمين إليه للتحية أو للسمر أو لحاجة لهم عند العمدة . وقدم إليهم سامي ومأمون يشاركان الجمع الجلسة ويستمعان إلى ما يدور من حديث ،

وفجأة وجد زين نفسه يقول دون أن يملك زمام تفكيره أو عنان لسانه :

ـ سامى . اقرأ لنا عشرا مما حفظته .

وعجب الجالسون أن يعرف زين الله أو يهفو إلى سماع كلماته . وتهيأ جميعهم للنفاق يعلقون به على تلاوة سامى .

وبدأ سامى يقرأ : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم . اقتربت الساعة وانشق القمر » ومضى فى قراءته مرتعش الصوت بإيمان عميق عربى اللسان بين الحروف ينطقها فى حب وخشوع وإخبات يحسب سامعه أن صوته يسجد بالقراءة لمالك الملك . والصوت خفيض ولكن الصمت حوله مرهوب يكاد كل سامع منهم يمسك أنفاسه لا يعلو منه شهيق أو زفير . لحظات ربانية هومت على الجمع . ويمضى سامى فى القراءة . فإذا القلوب كلها وجيب والنفوس متعلقة بالسماوات العليا بعيدة غاية البعد عن الأرض وما فيها والدموع من الجمع سواجم هاملات لا يطيق فرد منهم أن يمسكها .. لا تهمى بل إن أحدا لا يحاول أن يذودها .. لقد كانت كل دمعة تسبيحة مرفوعة إلى رب العرش ، وأحس الجمع إحساسا واحدا أنهم جميعا أصبحوا عند سدرة المنتهى قريبين غاية القرب من العرش . وسامى يقرأ لا يلتفت إلى أمر الجمع حوله ، إنه هو فى الملكوت الأعلى هناك عند الملك القدوس فى الساحة العلوية التى لا يبلغها إلا ذو حظ عظيم .

وحين قال سامى : « صدق الله العظيم » . شمل الصمت الذاهل المكان وتملكت الرهبة قلوب الحاضرين فهزتهم هزا ثم علا فجأة نحيب مأمون واندفع إلى أخيه يقبله ويحتضنه ، وصحا الجميع من البهر الذى لفهم وراحوا يحيطون بسامى تتعالى أصواتهم : ما هذا بصوت بشر سبحان من أعطاك . ما هذا الذى ترتله ؟ كأننا نسمع القرآن لأول مرة . وتوالت التعليقات . والتفت سامى إلى أخيه مأمون .

ـ مأمون اقرأ .

ـ بعدك .

ـ نعم .

ـ هيهات .

ـ بل تقرأ .

ـ أمرك .

وجلس مأمون جلسة القارئ وبدأ : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم . إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » .

ومضى فى القراءة . سبحان الوهاب . إذا كان صوت سامى سجودا فصوت مأمون ركوع ورجاء ودعاء . وصوت كليهما إيمان أو فناء فى حروف الكلمة الربانية التى يرتلانها وكأن كلا منهما أصبح حرفا من الكلمة أو كلمة من الجملة أو جملة من الآية أو آية من السورة .

كانت رتيبة تراقب ولديها وتشهد بقلب الأم وعين البشر هذه المعالم العجيبة التي ينفردان بها عن سائر من عرفت من البشر .

وكلما شبا ازدادت هذه المعالم قوة ووضوح .. كان سامي هادئ السمات مطمئن القسمات واثقا في تصرفاته وفي خطواته ، خاشعا في غير مذلة ، هادئا في غير ضعف . وكان مأمون دائماً مأخوذاً بأخيه ، معجباً به ، يطيعه طاعة أب لا أخ لا يكبره بأكثر من سنتين . وشيء آخر كان يذهل الأم هو تلك القوة الجسدية التي يتمتع بها سامي . تلك القوة التي بهرتها في طفولته الباكرة . فقد مشى قبل السن التي يمشي فيها أترابه وليست تنسى يوم كانت جالسة تريد أن تقوم إلى المكواة الحديدية الثقيلة ، وكان سامي جالسًا بجوارها . ورآها وهي تمد عينيها إلى المكواة ولا حظ أنها أوقدت نار وابور الجاز ووضعت عليه تلك القطعة من الصفيح التي تضعها عادة تحت المكواة . وفوجئت رتيبة بالطفل الصغير يقوم من جلسته وقد أدرك ما تريد من نظرتها ومما أوقدت من نار . قام الفتى وحمل المكواة . وقفزت مشفقة أن يقع الطفل من ثقل الحديد ويأخذها الدهش البالغ أن الطفل حمل المكواة وكأنه يحمل لعبة من لعب الأطفال ويقدمها إلى أمه ويجلس إلى جوارها وكأنه ما صنع شيئا .

وكان مما تلاحظه أنه لم يحاول أن يتفاخر بهذه القوة مطلقا وكأنه لا يعرفها في نفسه .

وكان الأطفال فى ملعبهم إذا تعاركوا ابتعد عنهم وكأنه يخشاهم . إلا مرة واحدة وكان أخوه مأمون يلعب مع صحابه فإذا بأحدهم يعدو عليه ويضربه ويوقع به وسامى متباعد لا يحاول أن يتدخل حتى إذا أمعن الصديق فى عدوانه وارتمى فوق مأمون وراح يكيل له الضربات ، تقدم سامى فى هدوء وفى ثقة وقد فرغ صبره الطويل وفوجئ الأطفال جميعا بسامى يرفع الطفل وكأنه يرفع قطعة من القماش المتهرئ ويلقى به بعيدا ، ثم يحمل أخاه إلى البيت . ومنذ ذلك اليوم لم يحاول أى طفل أن يعارض سامى أو مأمون . والأطفال فى الملعب لا يخشون الآباء فكلهم فى مراح الطفولة سواسية لا تقف مناصب الآباء أمام أعينهم ، فهم لا يدرون عن هذه المناصب شيئاً وهى لا تعنيهم فى قليل أو كثير .

* * *

كبر الأخوان وانتظما فى سلك الدراسة الابتدائية وكان بالقرية مدرسة ابتدائية . وكان كلاهما نابغة فى فصله . وكان كلاهما حبيبا إلى المدرسين والتلاميذ معا . ولكن سامى مع السنين لاحظ أن شيئاً ما فى عيون التلاميذ والمدرسين جميعا غير الحب . لم يدركه سامى أول الأمر ثم شعر كأنما هو طائف من خوف ، ولم يدر سامى مأتى هذا الطائف ولا مبعثه . حتى كان يوما جالسا بالفصل وحده وسمع اثنين من المدرسين يتحدثان من خارج الحجرة وهما لا يعلمان أنه بها .

ـــ عجيب شأن سامى ومأمون .

ــ تقصد ابنى العمدة .

ــ ألا تعجب معى ؟

ــ كأنهما ابنا قطب من أقطاب الله الصالحين .

ــ كلاهما مثال نادر فى الأدب والهدوء مع ذكاء غير طبيعى .

ــ أتراهما يعرفان ماذا يفعل أبوهما ؟

ــ مطلقا .

ــ لا بد أنهما لا يعرفان . لا يمكن أن يكونا على علم بما يصنعه أبوهما بأهل القرية من رعب وقهر وظلم وجبروت .

ــ على فكرة هل عرفت أنه رفع الإتاوة ؟

ــ حقا ؟

ــ وحاول فرهود أن يحتج فأحرق له قمحه وهدده أن يفقد بهائمه .

ــ وبعد ؟

ــ رضخ طبعا وقدم الإتاوة كما قررها العمدة .

ــ طيب اسكت وحياة والدك لا يسمعنا أحدهما وينقل إلى أبيه حديثنا .

ــ أعوذ بالله لا قدر الله .... إن أطفالى ما زالوا صغاراً إذا قتلت أنا لن يجدوا أحداً بعدى .

وأدرك سامى فى مكمنه الهول الراعد الذى سيدخله إلى نفس الأستاذين إذا هما علما أنه سمع ما سمع ، فاختفى تحت الدرج . حين سمع أصوات الطلبة القادمين تظاهر لزملائه وكأنه يبحث عن

قلم سقط منه ، حتى إذا دخل المدرس وجده جالساً فى مكانه وهجس فى نفس الأستاذ هاجس .

ــ سامى .

ــ نعم يا أستاذ .

ــ لم أرك تدخل الفصل مع إخوانك .

ــ بل كنت معهم .

ــ حسنا .

ــ واطمأن الأستاذ إلى مافى صوت سامى من نبرة طبيعية .

* * *

تأكد سامى أن المكان خال به وبأخيه وقص عليه ما سمع من الأستاذين ، وقال مأمون :

ــ وبعد؟

ــ ما رأيك ؟

ــ ما رأيك أنت ؟

ــ الآن عرفت سر هذه النظرات فى عيون الزملاء والمدرسين .

ــ وماذا نفعل ؟

ــ أنا وأنت لم نسئ إلى أحد فلماذا نحتمل كراهية الناس لنا .

ــ أنه أبونا .

ــ ألا نخبر أمنا ؟

وقال سامى بعد ريث تفكير :

ـ واحدة من اثنتين ، إما أنها تعرف ولا تستطيع أن تصنع شيئا وإما أنها لا تعرف ، وحينئذ لن تستطيع أن تصنع شيئا أيضا .

ـ أنت محق فماذا ترى ؟

ـ أرى أن نصبر حتى نتم هذا العام الدراسة فى المدرسة الابتدائية ونطلب إلى أبينا الذهاب إلى المركز للدراسة فى الإعدادية .

ـ وأنا ... ما زال أمامى عامان .

ـ سأطلب من أبى أن نذهب أنا وأنت فما دام سيفتح بيتا هناك فمن الطبيعى أن يذهب كلانا .

ـ معقول .

* * *

— ٨ —

رحب مسعود الصاحب بأبناء بلدته . وأنزلهم أهلا . وحين تداولوا أمرهم معه أفسح لهم من الآمال ما لم يخطر لهم على بال .

ــ توكلوا على الله . الصعيدى منا ينزل مصر لا يملك الا صحته ويعيش أحسن عيشة فكيف وأنتم تحملون ما تحملون من مال .

ــ اسمع يا مسعود نحن لم نخرج من بلدتنا إلا هذه المرة .

ــ أعرف ذلك .

ــ ونحن نترك لك الأمر كله .

ــ لنبدأ أولا بزواج صبيحة وشملول .

ــ أترى هذا ؟

ــ حتى يتاح لهما أن يعيشا معا . وازواجهما فرصة أن يعرفا أبناء بلدتهما .

وتقول صبيحة :

ــ وكيف أتزوج قبل أن أعد المنزل ؟

ويقول مسعود :

ــ سأترككم فترة صغيرة من الزمن لأهيئ لك ولزوجك المنزل .

ويقول صميدة .

ــ هل الأمر ميسور إلى هذا الحد ؟

ويقول مسعود .

— هو أمر فى غاية الصعوبة على جميع الناس إلا علينا أبناء الصعيد . فنحن بيننا معاملات قوية ومشكلة الفرد منا مشكلة الجميع . فاترك الأمر لى أدبره . ألا يكفيك حجرة بمنافعها ؟!

ويقول شملول :

— يا عم مسعود ، إننا نبدأ حياة جديدة والله وحده يعلم كم من الوقت سنقيم فى هذا البيت ؟ وأنت تعلم أننا إذا كنا اليوم نجد عطفا من أصدقائك فسرعان ما نصبح منكم ونهتم معكم بمشاكل الآخرين ويستعصى علينا أن نجد من يهتم بمشاكلنا . فكلما كان البيت متسعا كان هذا أنسب . حجرة لا تصلح طبعا . وخاصة أن معنا الآن صميدة ونحن ننتظر أخى محمود أيضا .

— يا ابنى كلامك معقول ولكننى قدرت طبعا أن صميدة ومحمود سيعيشان فى بيت آخر . إنما علينا أن نهيئ مكانا لأبنائكما . دع الأمر لى . سلام عليكم .

وحين عاد مسعود بعد ساعتين كان قد وطأ لهم كل العقبات ووجد فى روض الفرج شقتين . وما أن سمع ضيوفه هذا حتى شملهم الفرح والعجب معا . ولكن عجبهما زال حين عرفا أن العمارة لسليم الخشت وهو من قرية الدميرة المجاورة لقريتهم ، أثرى من العمل فى سوق الفاكهة ، وظل شديد الانتماء لقريته والقرى المجاورة لها .

وانتقل الركب إلى البيتين الجديدين . وبدأ الجميع فى الصباح يشترون الأثاث بصحبة مسعود الذى كان على صلة وطيدة بكل متجر دخلوا إليه .

وما هى إلا ثلاثة أيام حتى كان البيتان صالحين للإقامة غاية الصلاحية . ولم يجد محمود صعوبة فى الوصول إليهم .

وبات محمود ليلته مع شملول . وباتت صبيحة مع أخيها صميدة . ودعا محروس إلى الفرح بعد أسبوع من مجىء محمود ولم يكلفهم هذا الفرح شيئا فقد تعاون أبناء الصعيد بروض الفرج . وعرف الجميع العروسين الجديدين ، وعرف العروسان أبناء الصعيد فى المنطقة .

ومر أسبوع آخر ترك فيه محروس العروسين يستمتعان بعرسهما ثم ..

— وبعد يا شملول ..

— نعم .

— نفكر فيما نحن مقبلون عليه .

وقال صميدة :

— أنت رئيسنا هنا .

— اسمعوا نحن قيمتنا هنا بعملنا .

— طبعا .

— الفلوس تذهب الآن إلى البنك ونودعها .

— كلها ؟!

ـ تقريبا .

ـ وبعد .

ـ أعددت لكل منكم عملا .

ـ لكل منا .

ـ شملول سيعمل فى محل سليم الخشت لبيع الفاكهة بالزمالك حتى يتعلم هذه الحرفة .

ويقول محمود :

ـ ونعم العمل . خاصة وهو يجيد القراءة والكتابة .

ويقول محروس :

ـ وأنت يا محمود وأنت يا صميدة ستعملان فى المقاولات . فأنا لن أجد أحدا أطمئن إليه مثلكما . وبعد وقت قليل سأجعل كلا منكما يتولى مقاولاته الخاصة به .

وهكذا استقر المقام بالقادمين وعرف كل منهم طريقه الواضح فى الحياة .

حين حصل سامي على الابتدائية جلس إلى أبيه جلسة عرف بها الأب أن في نفس ربيبه أمرا يريد أن ينفضه على مسامعه . ولم يعجب الأب من تلك النظرة التي اتسمت بها عينا سامي منذ فترة فقد تعود عليها . كان سامي إذا جلس إلى أبيه نظر إلى السماء حذرا أن تلتقي عيناه بعيني أبيه . ولم يعد الأب يعجب ولكنه لما يزل جاهلا ما تعنيه هذه النظرة لا يجد لها سببا .

منذ عرف سامي ما عرف من أمر أبيه انشطرت نفسه شطرين . فهو ابن يكن لأبيه أو لمن يظن أنه أبوه كل العواطف التي تجيش في نفس ابن قبل أبيه من حب وشكر وولاء . وهو كإنسان تعلقت روحه بأسباب السماء . وأحب الله حتى تفانى في هذا الحب يرى أن ما يصنعه أبوه بالناس إجرام واعتداء على حقوق الله وعلى إنسانية الإنسان الذي جعله الله أكرم مخلوقاته . وكان في نفسه يتساءل لماذا يمتحنه ربه هذا الامتحان العسير ويمزق مشاعره هذا التمزق والله هو العدالة المطلقة . وهو سبحانه المطلع على القلوب وهو سبحانه يعلم كم يفنى سامي في حب الله اللطيف الرحمن .

وفي هذه الحيرة كان سامي يتحرى دائما إذا جلس إلى أبيه ألا ينظر إليه عينا بعين فقد كان يمثل في نظره تناقضا غير منسجم مع طبيعة الأمور ، كيف يكون أبا حانيا وزوجا بارا في بيته وكيف يدمر حياة الناس الذين هم مثله آباء وأزواج وإخوة وأبناء ؟

قال زين لابنه :

ـ أراك تريد أن تقول شيئا .

وقال سامى ونظرته معلقة بالسماء لم تزل :

ـ نعم يا أبت .

ـ فقل .

ـ أريد أن أتلقى تعليمى الإعدادى بالمركز .

ـ ولماذا ؟

ـ إننى أعد نفسى لأكون صاحب شهادة عالية وأريد منذ هذه المرحلة التى أنا فيها أن أتلقى تعليمى على أحسن المصادر المتاحة .

ـ وترى أن المدرسة الإعدادية هنا لا تصلح لذلك ؟

ـ إننى هناك سأكون متفرغا للدراسة كما أننى سأكون قريبا من المكتبة وأستطيع أن أحصل على ما أشاء من كتب . والمركز قريب على أية حال .

ـ ولكنك بهذا ستكون وحدك .

ـ إذا سمحت لى صحبت معى أخى مأمون فكلانا لا يترك صاحبه ، وهو أيضا هناك سيكون تعليمه خيرا من هنا .

ـ ومعنى ذلك أن تصحبك أمك .

ـ هذا إليك .

ـ أتريد أن تتركنى وحدى ؟

ـ يا أبى أنت مشغول بعملك .

ـ أليس من حقى أن يكون لى بيت ؟

— إنك لا يمر عليك أسبوع دون أن تذهب إلى المركز مرة أو مرتين . والتليفون موجود تستطيع أن تطلبنا وقتما تشاء .

— هل أنت مصمم ؟

— أما أنا فمصمم نعم ، ولكن الأمر الأخير لك .

عجيبة تلك المشاعر التى كانت تداخل نفس زين من ربيبه سامى . إنه كان يحس نوعا من الرهبة وهو يتحدث إليه ، أهى رهبة المخطئ أمام النقاء . أم أن فى سامى هذا سرا خفيا يفرض الإجلال على من يتحدث إليه حتى ولو كان هذا المتحدث أباه الذى إن لم يكن قد ولده فهو تلقفه وليدا وشمله برعايته حتى أصبح هذا الفتى المهيب فى هدوء . الجليل فى تواضع . كان زين واثقا أنه لن يستطيع أن يرفض طلب ولده . وكل ما استطاع أن يفعله .

— إذن أرسل معكما خادمة ترعى شأنكما وتتركان أمكما لى .

— هذا إليك .

— ولكن والدتك لن تقبل .

— أحسب هذا .

— فلنسألها .

وذهبت الأم وابناها إلى بيت استأجره لهما زين واستقرت بهما الحياة هناك ، وصحب الجميع فواز الشيمى الذى ظل يرافق سامى إلى المدرسة منذ اليوم الأول لدراسته . والذى يحبه سامى ويرعاه حتى أصبح معروفا فى بيت العمدة أنه تخصص لسامى ثم لمأمون كليهما . وقد ارتأت رتيبة أن وجود فواز معهم هام حتى يشترى

لهم مطالب البيت . وصحبت معها طبعا ابنتها عزيزة . واستقر بهم البيت الجديد فى المركز وركب لهم التليفون أيضا ففى المراكز مشكلة التليفون ليست فى عسرها بالبنادر والمدن . واستطاع سامى أن يحصل على ما يشاء من كتب وجعل أخاه مأمون يقرأ معه فأصبح كل منهما نسيجا وحده بين التلامذة . وأحس التلاميذ أن سامى وأخاه مأمون من صنف آخر غيرهم . وساد بينهم هذا الشعور الذى يختلط فيه الاعجاب والاكبار بالغيرة والحسد والشعور بالنقص . ولكن التلاميذ على كل حال لم يكن يبدر منهم إلا الود وإن طفر الحقد على وجه بعضهم فما يلبث أن يمحى ويعود أدراجه إلى خفايا الضمائر ويستتر هناك لا يعلم أمره إلا الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

حصل سامى على الإعدادية بتفوق وانتقل إلى المرحلة الثانوية . وحاله تجاه أبيه على ما هى عليه وحيرته من العذاب الذى ألقاه أبوه إليه كما هى . يسأل ربه كل حين لماذا يا إلهى هذا العذاب الذى أنا فيه ؟ يسأل ربه كل حين . أنت تدرى يا إلهى كم أحبك وكم أطيعك وكم أفنى فى حبى فلماذا .

وفى ليلة أخذه النعاس وهو فى هذه الحال من التهجد والمساءلة . فرأى فى منامه عجبا .

رأى شيخا مهيبا وجهه كله صلاح وتقوى ونور يركب البحر ولكن مركبه فيه ليس سفينة ولا هو قارب . وإنما حوت ضخم يشق به العباب ويأتمر بأمره . ولم يكن حين يأمره يحدثه وإنما كان

الحوت يدرى ما يريد سيده فيأتمر بأمره بصورة تلقائية لا يعرف الناس لها مثيلا .

ويظل الشيخ النورانى سائرا فى البحر وسامى معه يصاحبه وقد اطمأنت نفسه وأصبح فى سعادة سماوية لا يحسها إلا حين يقرأ القرآن . وبينما الشيخ النورانى على حوته يشق الماء شقا . عرضت له سفينة ضخمة فإذا هو يخطو خطوة فيصبح فوق السفينة والحوت يسير بجانبها . ولا ينظر ركاب السفينة إلى الشيخ وكأنه ما شاركهم مركبهم بل هم حتى لا يرون الحوت ولا يحسون من أمره شيئا . وإذا الشيخ النورانى يصنع صنيعا يذهل له سامى ذهولا مفجعا . إن الشيخ الربانى يخرق السفينة ويتلفها وحينئذ فقط يتنبه الركاب إلى ما حدث بمركبهم دون أن يروا الشيخ أو يشعروا به .

ويصيح به سامى :

ـــ أتخرق السفينة لتغرق أهلها ...أهذا عدل ....أيعقل أن شخصا فى عظمتك يصنع هذا الصنيع ؟

وينظر إليه الرجل الربانى ولا يكلمه وإن كان يبدو عليه إنه سمعه . ويلح سامى فى استنكار ما رأى .

ـــ إنك رجل نورانى ....إنك رجل ربانى ....أمعقول هذا الذى تفعله ؟

وكان الشيخ قد استقر على الحوت فنظر إلى سامى نظرة هادئة مطمئنة وابتسم له فكأنما أشرق عن فمه ضياء فجر ومشى به الحوت وسامى لا يدرى كيف يتسنى له أن يكون فى رفقته .

ورسا الحوت إلى أرض مدينة وخرج الشيخ النورانى ومضى فى طريق بين بيوت ، وإذا بغلام مقبل عليه حتى إذا اقترب منه وأصبح بين يديه إذا به يضربه ضربة صاعقة فيقتله . ويحيط الهول الآخذ بسامى ويتملكه الذهول وتكاد الدهشة أن تعقد لسانه ، ولكنه جاهدها حتى استطاع أن يصيح بالشيخ فى استنكار شديد :

ــ أتقتل نفسا زكية بغير نفس . أهذا عمل يرضاه الله ؟ أهذا معقول ؟ لقد كنت أحسبك ربانيا .

ولم ينظر إليه الشيخ وكأنه ما سمعه . وصاح سامى ثانية وثالثة ورابعة . فنظر إليه الشيخ وابتسم تلك الابتسامة المشرقة بالنور ، وصمت سامى .

وركب الشيخ حوته ومضى طريقه حتى بلغا قرية نزل بها الشيخ واختفى الحوت . ورأى الشيخ جماعة كبيرة من الناس فاقترب منها وقال فى مسألة وفى اعتزاز لم يزل يحتفظ به .

ــ ألا أجد عندكم طعاما ، فقد مسنى التعب ولا أجد هنا طعاما ؟

فأشاح عنه الناس وكأنهم ما سمعوا مسألته .

وانصرف الشيخ عنهما ومضى طريقه من القرية فى هدوء من يعرف مقصده . وبلغ الشيخ جدارايهم بالسقوط فراح يصلح شأنه يقومه حتى أصبح ثابتا قويا .

فقال سامى :

ـــ هذه أول حسنة أراك تصنعها ولكنها أيضا عجيبة . أيرفض أهل القرية طعامك فتصلح لهم حائطا يوشك أن ينقض ؟ ألم يكن يجدر بك أن تطلب منهم أجرا جزاء ما صنعت .

ونظر إليه الرجل وابتسم ، ثم رجع إلى الحوت فركبه وبلغ صخرة رسا عندها الحوت ، فنزل الرجل النورانى وجلس عليها وأشار إلى سامى فقدم إليه والذهول ما يزال يحيط به ، وأومأ إليه الرجل فجلس سامى ، وأراد سامى أن يعود إلى استنكاره ولكن الرجل النورانى سارع قائلا :

ـــ اسمع حتى يطمئن قلبك ، أما السفينة فهى لقوم مساكين لا حياة لهم إلا بالعمل فى البحر .

ـــ أوَهذا سبب يجعلك تخرقها وتغرقها ؟

ـــ بل إنى أنقذها .

ـــ لا أحسب أن مع الخرق إنقاذا .

ـــ بل هو الحق . فإنى أردت أن أعيبها عن عمد لأن ملكا ظالما كان قادما من خلف السفينة بأسطوله وكان يستولى على كل سفينة يجدها غصبا . وأمرنى الله أن أخرق هذه السفينة حتى يراها الملك الطاغية وكأنها ستغرق فيتركها لأصحابها المساكين .

ـــ وهل سلمت السفينة ؟

ـــ ولم يأخذها الملك اللص .

وهم سامى أن يفتح فمه فإذا بالشيخ يقول :

ـــ تريد أن تسأل عن الغلام .

ـ أمعقول هذا ؟

ـ إن أبويه مؤمنان قريبان إلى ربهما كل القرب .

ـ أصبحت المصيبة أعظم .

ـ بل انتظر ... إن هذا الابن كان سيرهقهما ويسيء إليهما ويلاقيان منه الشقاء والعقوق والعدوان ، فأردنا أن يهب لهما ربهما خيرا منه ابنا زكيا بارا يصل الرحم ويكون لهما على الحياة عونا ولا يكون عونا للحياة عليهما .

ـ ولكن الأبوين سيحزنان لموت ابنهما فهما لا يدريان أنهما كانا سيجدان من أبنهما هذا عقوقا ونكرا .

ـ إن حزن عام أو عامين خير من نكد الدهر كله . وما أدراني وما أدراك لعل الله يكتب لهما مزيدا من الخير جزاء صبرهما على الجزع الذى أحاط بهما لموت الغلام .

ـ أصبت .... و.

ـ تريد أن تسأل عن الجدار .

ـ نعم .

ـ اتخيلت أنني أريد من الناس طعاما وأنا فى حمى الله ؟

ـ دهشت لهذا .

ـ أنا أردت أن أمتحن كرم هؤلاء الناس فكانوا عندما توقعت بخلا وشحا .

ـ والحائط الذى أقمته .

ـ إنه لغلامين يتيمين فى هذه المدينة وإن تحته كنزا وقد كان أبوهما رجلا صالحا . فشاء ربك فـى عليـاء سمائـه أن يبلـغ الفتيـان أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك لعباده المؤمنين . وأنا يا بنى لا أفعل ما أفعل مختارا فما صنعت شيئا مما صنعت عن أمرى .

ـ باركك الله أيها الشيخ الربانى . سلام عليك .

ـ إلى أين .

ـ أعود .

ـ بل انتظر .

ـ إذا أمرت .

ـ فاجلس .

ـ أمرك .

ـ ألم تكن تسأل ربك لماذا جعلك شقيا بـأبيك وأنـت علـى مـا أنت عليه من حب الله وطاعته ؟

ـ لا أعجب الآن حين أجدك تعرف هواجس نفسى .

ـ أعرفت الآن ؟

ـ إن قلت نعم عرفت أنت أننى لم أصدقك القول .

ـ يـا بنـى ، إن عدالـة السـماء لا صلـة لهـا بعدالـة الأرض . إن الإنسان فى دنياه هذه الضيقة لا يستطيع أن يصل إلى عدالة السماء . ولكن الإنسان حين يؤمن إيمانك يثق أن الله وهو العدالـة المطلقـة لا يريد بالناس إلا خيرا . وقد رأيت المركب قـد خرق ولكـن الله أنقذها من السلب . ورأيت الغلام قد مات والموت ليس عقابـا لمن

مات وقد نقله الله إلى جواره قبل أن يسيء إلى والديه وقبل أن يصبح جبارا شقيا ، فموته إذن رحمة به وثواب لوالديه ، أهذا النوع من العدالة المطلقة يعرفه البشر ؟ والجدار حفظ به للأسرة المؤمنة كنزا أراد سبحانه أن يظهر في الوقت الذى قدر سبحانه أنه أحسن الأوقات لهما . فعدالة السماء يا بنى هيهات لبشر أن يدركها ، وإنما علينا فقط أن نؤمن بها ونؤمن أنه الرحيم الرحمن اللطيف الخبير . هيه يا بنى ، أوجدت جوابا لسؤالك .

وصحا سامى من نومه وعيناه تفيضان بالدمع ، وتوضأ وصلى ثم صلى ، يدعو ربه ويشكر آلاءه عليه . سبحانك ربى فأنا إذن أثير عندك قريب منك . عبدك أنا أعاهدك يارب العالمين أن أكون حتى ألقاك العبد الشاكر العامل فى طاعتك ، أصحب أبى بمعروف وأرد ظلمه عن الناس بكل ما أملك من الإيمان والقوة التى وهبت لى . اللهم أعنى على اتباع أوامرك وعلى رفع الظلم عن المظلوم . وعلى رد الحق إلى أصحابه إنك أنت العزيز ذو القوة المتين . اللهم لقد بلوتنى لتختبرنى بما يفعل أبى . اللهم وأنت القائل « ولنبلوكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » اللهم فاجعلنى من أولئك الصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس فقد لت عنهم سبحانك : « أولئك الذين صدقوا وأولئك هم تقون » .

ما لبثت صبيحة أن أنجبت لشملول ابنهما الأول فالثاني ، وما لبث شملول أن أصبح صاحب متجر خاص به فهو ذو ثراء عريض . ولم يمض وقت كثير حتى أصبح صميدة ومحمود من المقاولين الواسعي الثراء ، وأصبحت الحياة بالنسبة للمهاجرين جميعا واضحة المعالم بينة السمات .

ودخل ماهر ومختار ولدا شملول إلى المدرسة وانتظما في السلك الدراسي وسارا خطواتهما الدراسية في توفيق .

* * *

وازداد سعار العمدة زين الرفاعي وفشا رجاله في المنطقة جميعها يفرضون ما يشاء زين من أوامر . وكان زين ذكيا فهو يجزل العطاء لمعاونيه ويعاملهم في كرم باذخ وإسماح . لماذا هذا المال ....لمن ... لولدى سامي ومأمون .... ماذا .... ماذا قلت ....سامي ..أتختلق الكذبة وتصدقها ؟ وهل سامي ابنك ؟ هكذا أثبته في شهادة الميلاد... أتساوى إذن بينه وبين ابن دمك ؟.... وماذا بيدى أن أصنع . وكيف أفرق بينهما في المعاملة ... لا أحد يعلم أن سامي ليس ابنى إلا عزيزة وقد حافظت على السر ولم تخنه ... وهي تعلم سطوتي وجبروتي ولن تفكر يوما أن تخون سرى ... إذن كيف أستطيع أن أفرق في المعاملة بين سامي ومأمون ؟... لا سبيل أمامي ... ومن أين كنت أعلم أنني سأرزق بطفل من رتيبة ؟ وهل كنت أتصور حين جاءت رتيبة إلى بيتي لترضع سامي أنها ستصبح

زوجتى وأم ابنى الحقيقى ؟ عجيب أمر رتيبة .... إنها تعامل سامى كما لو كان ابنها شأنه شأن مأمون . بل إنها أحيانا تفضل سامى فى المعاملة بمقولة أنه الأكبر . إن شأن سامى هذا عجيب هو أيضا . أى سر فيه يجعلنى وأنا لست أباه كأننى حقا أبوه حتى أننى كأننى كثيرا ما أنسى أننى اصطنعته واستجلبته من حيث لا أدرى ،، محاولا أن أرضى غريزة الأمومة فى زوجتى . وقد لقفته طفلا فى يومه الأول ، ثم أنا بين يديه أحس رهبة وتروعنى من حوله هيبة لا تطالعنى من أحد . وأنا رجل لم أعرف الخوف من أحد . لقيت من لقيت من كبار رجال المديرية بل والدولة فما استطاع أحد منهم أن يلقى فى نفسى لمحة من رهبة . وأنا فى منقطتى جميعا أنا الرهبة والخوف يرجف أشجع رجالها هلعا إذا سمع اسمى . فأى شئ فى هذا الفتى الذى شهدته رضيعا وطفلا وصبيا ، يجعلنى أخشى أن أواجهه وأحاذر كل الحذر أن يعلم عنى ما أشيعه من الهول والذعر فى أنحاء الربوع التى تجاور بلدتى . وماله وهو أمامى وهو واثق كل الثقة أننى أبوه وليس له من أب غيرى . ما له لا يتولاه هو الرهب ويتولانى أنا ؟ وما له لا يخشانى بينما أحس أنا أننى أخشاه . أيكون هذا لنقائه وعلمه وصدقه وثباته وإيمانه العميق الله ، ووثوقه ثقة لا تتاح إلا لمن عرف الطريق وسار عليه .

كم من صادقين لقيتهم ولكنهم لم ينالوا ما يناله سامى فى سى من إجلال . بل إن مأمون أيضا ينال منى هذا الإجلال وهو ن دمى . ولكنه لصيق بأخيه لا يكاد يفارقه فهو يتشبه به فى كل

شئ حتى فى إشاراته ولفتاته ، وحتى لقد اكتسى وجهه بهذا الوقار الذى يكسو وجه أخيه . وهو يقلد ما يفعله أخوه فكأن الفارق بينهما عشر سنوات وليس سنتين . ما شأن هذين الأخوين وما لى أحس من كليهما رهبة تجعلهما غريبين عنى ؟ وأحدهما جزء منى والآخر ربيبى الذى لا يعرف لنفسه أبا غيرى .

أيكون ما أصنعه من مال لأجلهما ... لا .... ما أظن .... ربما خادعت نفسى وقلت إننى أكون لولدى ثروة ولكننى أعلم فى البعيد فى نفسى أننى أصنع ما أصنع عن رغبة عاتية فى السلطان والجبروت . والمال أساس خطير من أسس الجبروت ونتيجة محتمة للسلطان إذا جاء من البطش والطغيان . وقد استطعت بقوتى أن أقتل فى نفسى كل شفقة إلا على أهل بيتى . وما دمت قد تخلصت من ضعف الشفقة فأنا قادر أن أصنع ما أريد لا يردنى شىء .

إن رغبة السلطان الجارفة التى تموج بين أضالعى هى التى ترسلنى كالإعصار فى أرجاء الحياة . وليس ولدى .

أيقاوم الإنسان قدره ... أيحارب الإنسان سجيته ... هكذا أنا . وهكذا أحب أن أكون .

كان سامى قد بلغ نهاية المرحلة الثانوية وأدى امتحان الشهادة وفى يوم ظهور النتيجة ذهب مع مأمون ليتعرفا عليها . وكان فناء المدرسة حاشدا بالطلبة والجلبة شديدة والتلاميذ فى حلقات منها المتسعة ومنها قليلة العدد . وسامى بين رفاق له يجرى بينهم الحديث هينا وهو يسمع أكثر مما يتكلم . وفجأة رأى سامى حلقات تنضم واثنين متماسكين فى معركة عنيفة . وأنعم النظر فإذا مأمون أحد المتعاركين وخصمه يكيل له الضربات . ويهم سامى إلى أخيه وقبل أن يصله يكون مأمون على الأرض وقد ارتمى خصمه عليه يضربه فى غير هوادة ولا رحمة . ويصل سامى إلى مكان المعركة ولا يسأل ولا يفكر وإنما يرفع ذلك الخصم فى ثبات ويحمله وكأنه يحمل ورقة ويلقى به وكأنما يلقى حصاة اعترضت طريقه . ومال على أخيه فأقامه وهو يسأل فى هدوء وكأنه لم يصنع ما جعل الطلبة متجمدين من الهول والذهول .

— ماذا حدث ؟

ويقول مأمون لاهثا :

— راح يذكر أبى بسوء دون أى سبب .

وقبل أن يجيب سامى يتصايح الطلبة .

— الحقوا ... أسرعوا ... منيب .... منيب .

ويلتفت سامى إلى الصائحين .

— من منيب ؟

وتتكاثر الأصوات وتتقاطع الكلمات ويفهم سامى بصعوبة أن منيب هو اسم الفتى الذى ألقى به عن أخيه .

ـ ماله ؟

ـ مات .

ـ ماذا ؟

ـ مات .

ويؤخذ سامى على غرة ولا يتريث . بل سرعان ما يشق جموع الطلبة الزاحفة وكأنه يزيح شخوصا من هباء ويصل إلى باب المدرسة بين حيرة المشاهدين وذهولهم ، ويخرج يجرى فى سرعة الومض حتى يصل إلى محطة السكك الحديدية . ويسأل سائق التاكسى الواقف فى انتظار القادمين :

ـ ما أول قطار إلى مصر ؟

ـ بعد دقيقتين .

ـ لماذا لم يصل إذن إلى المحطة ؟

ـ سلامتك يا أستاذ ها هو ذا واقف على ...

وقبل أن يكمل السائق جملته يكون سامى فى القطار دون أن يشترى تذكرة ودون أن يفكر إن كان ما فى جيبه يكفى ثمنا للتذكرة أم أن ما معه لا يكفى ، ويتحرك القطار .

ـ إلى أين ؟ ماهذا الذى فعلته ؟ أقتل إنسانا وأهرب !؟ كأنى إذن أبى . ما الفرق بينى وبينه ! لماذا نلوم الناس ونفعل فعلهم ! ألم يكن الأجدر بى وأنا الذى أوثق أسبابى بالسماء وأقرأ ما أقرأ أن

أكون أكثر هدوءا وروية ؟ نعم أعلم أننى لم أتمالك نفسى وأنا أرى أخي يكاد يموت تحت هول الضربات ، ولكن أى فارق بينى وبين الحيوان إذا أنا تركت مشاعرى تتحكم فىّ دون أن أحيطها بسياج التعقل والتفكير ؟ أليس بالعقل وحده فضل الله الإنسان على سائر المخلوقات ؟ فما فائدته إذن إذا لم يجعلنا نتروى عند غضب ، ويعصمنا عند ثورة ، ويدرأ عنا عادية المعاصى ؟ وهل هناك أكبر من القتل ؟ إننى كأننى قتلت الناس جميعا ؟ ويل لى أى ويل . ويل لى من الله فوحق الإله سبحانه إننى لا أخشى غير سخطه . وإننى وحق الإله سبحانه لا أخشى الموت وإنما أخشى الله فأنا كادح إليه فملاقيه سبحانه وإنه ملق بى إلى حيث العصاة ؟

أكنت حين جريت وهربت عبدا ثائبا ؟

أنا لم أبدأ فى إعمال العقل إلا حين تحرك القطار . أى إنسان أنا ؟ بل إننى أنا الإنسان الذى قال عنه خالقه قتل الإنسان ما أكفره . أنا الإنسان بكل شروره وطغواه وجبروته ؟ إن صلاتى ونسكى ، وصلاتى وحبى لربى ، وعلمى وثقافتى كل هذا لم يجعلنى أتصرف كما ينبغي أن يتصرف العقلاء . غائب العقل حين ألقيت بالفتى وغائب العقل حين جريت وغائب العقل حين ركبت القطار . والآن هأنذا أعود إلى عقلى ويعود إلىّ ... أفتراني أستطيع أن أنزل عند أول وقفة للقطار وأقفل عائدا إلى حيث كنت لأتحمل نصيبى من العقاب ، ولأواجه آثار ما قدمت يداى .

هل أستطيع !

ولم لا ؟

وما لى لا أفعل ؟

إذن فهلم .

هلم .

ووقف وكان القطار سائرا فقعد ينتظر وقوف القطار . وحين استقر به المقام إلى أين .... وكيف أعود إلى قوم ثائرين ؟

وما لى لا أفعل ؟

ليس مع ثورتهم منطق .

أو ليس هو الحكم الطبيعى بينى وبينهم ؟

أى حكم ؟ إنك قتلت وعقوبة القتل هى القتل ففيم تريد المنطق ؟ لا تخفيف فى عقوبة القتل .. لا تخفيف فى عقوبة القتل . إذن أعود . وإذن أقتل ... وإذن ... وألقى عليه النوم بقوة لا قبل له بها ولا يد له فيها . وتجلى له الشيخ النورانى صاحب الحوت :

— لا تعد .

— أليس من الطبيعى أن أواجه عقابى ؟

— أى عقاب ؟

— عقاب القاتل .

— أقتلت عن عمد ؟

— لا ... لا طبعا أعوذ بالله .

— إذن فلست القاتل الذى يعاقب بالإعدام .

— ولكننى أعلم أننى أملك قوة جسمانية خارقة وهبها الله لى ، وكان ينبغى أن أتحسب حين أضطر إلى استعمالها .

— هل كنت فى تمام وعيك حين فعلت ما فعلت ؟

— كان إنقاذ أخى هو كل ما أفكر فيه .

— وقد تصرفت بما أنقذ أخاك .

— نعم .

— ولم تتصور أنك قد تقتل زميلك .

— لا .

— إذن فلا بد من مناقشة هذا جميعا قبل أن يقع بك العقاب .

— مع من أناقشه .

— مع كل الذين يسألونك .

— صاحب الثأر لا يسأل .

— إذن لا تعد .

— ولكننى أنا أسائل نفسى .

— هل كنت تريد قتله ؟

— أعوذ بالله العلى العظيم .

— إذن لا تعد إلا حين تعلم أنك تستطيع أن تجادل الذين سيواجهونك .

— لا جدال معهم .

— إذن لا تعد .

— أظل هاربا ؟

ـ وما تعلم نفس ماذا تكسب غدا .

ـ ولكنى قتلت .

ـ عن غير عمد .

ـ الموت شئ فظيع .

ـ ليس كما تظن .

ـ ألم يجعل الله منه قصاصا ؟

ـ إنه القصاص ليس فى الموت نفسه وإنما فى العلم به .

ـ إنه قصاص .

ـ إن الساعات التى يعلم فيها القاتل أنه سيقتل جزاء ما فعل هى القصاص الحقيقى ، أما الموت نفسه فشهيق لا يعقبه زفير أو زفير لا يعقبه شهيق . إنما الموت لحظة . لمحة . ومضة لا أكثر ولا أقل .

ـ وحزن الأهل .

ـ أسف وتشوف . ولكنهم يعلمون أنهم جميعا لا حقون بعزيزهم .

ـ ألا يطهرنى القصاص من الخطيئة ؟.. ألا يجعلنى احتمال العقوبة مغفورا لى عند ربى ؟

ـ إنه سبحانه كتب على نفسه الرحمة ، وهو وحده من يعلم أين يضعها . قد يغفر لك دون أن يقع بك القصاص ، وقد لا يغفر لك وإن وقع بك القصاص . وهو وحده الذى يغفر وهو العدالة المطلقة .

بلغ سامى القاهرة ونزل من القطار لا يعرف مقصدا ولا متجها ، وإنما هو يسير على الرصيف ويخرج به إلى الساحة ويقف لحظات على سلم المحطة وتتناوشه الأيدى والأكتاف وخطوات الآخرين الذين يعرف كل منهم طريقه ووجهته . ويزوغ منه البصر ويعلو به وجيب قلبه حتى ليطغى على السمع منه والبصر . وتتدافعه الأيدى فى عنف يزداد فى لحظة عن اللحظة السابقة ويجد نفسه آخر الأمر قد نزل السلم ويحاول الوقوف على الرصيف ولكن حركة الركاب تجرفه ويضطر آخر الأمر أن يفيق وينتزع نفسه انتزاعا من مجرى الزحام وينتحى من ساحة المحطة ناحية هادئة بعض الشيء .

« ماذا أنا صانع . وإلى أين بى المسير فى هذه القاهرة الضخمة وكل علمى بها أن ساكنها ضائع فيها ، فما خطبى أنا وأنا لم أرها إلا اليوم . وهل رأيت منها شيئا إلا دفاع أقدام ينتهبون الأرض بخطاهم كأن الإنسان منهم يجرى وراء عمره خاشيا أن يضيع منه فى الزحام .

كل ما معى عشرون جنيها ماذا أنا صانع بها ؟ أترانى ضعت من الحياة ؟ سبحان الله ... أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » صدق الله العظيم .

إن معى إيمانى بالله ويقينى به يقينى . ومعى قوة الجسم . ومعى شجاعة القلب . ومعى ثقتى أن الله لا يضيع عباده المخلصين . وأى سلاح أقوى من هذه الأسلحة التى أتحصن بها .

ومالى لا أمشى فى مناكبها . وأرى ماذا هى صانعة بى وماذا أنا صانع فيها . هلم المسير .

ومشى وعبر الساحة وخرج من الباب وترك قدميه تختاران الطريق يتبعهما ولا يأمرهما وقد أحس أن العقل لا عمل له الآن إنما النظرة وحدها هى التى تتحكم فى كيانه ، وفى لحظة أحس أنه يتبع شيئا لا يدريه وأن خطواته أستقامت على طريق من الهدى لا يدرى مأتاه . سارع فى شارع إبراهيم وكأن قوة عليا تحركه والغريب فى أمره أنه لم يحاول أن يتعرف معالم الطريق ولا الأسماء التى تحملها اللافتات على جانبى الشارع إنما هو يمشى وكأنما ولد الشارع وكأنه يعرف كل خافية من خوافيه . وطال به الطريق وهو لا يحس طوله ، ذاهل هو عن المكان والزمان وإنما يمشى ثم وقف .

ثم نظر . لافتة كتب عليها شركة تعمير سيناء . صعد السلم ودلف فى شقة ذات بهو واسع عريض يجلس فى صدره على مكتب صغير رجل فى أواسط العمر قصد إليه .

ــ السلام عليكم .

ــ وعليكم السلام ياابنى ورحمة الله وبركاته .

ــ أليست هذه شركة تعمير سيناء .

ــ نعم هى .

ـ لا شك أنكم تريدون عمالا .

ـ هو ما قلت .

ـ فهل أصلح ؟

ـ ماذا تريد أن تعمل ؟

ـ أى عمل .

ـ نحن لا نحتاج إلى أعمال مكاتب .

ـ وأنا لم أقل إننى أريد عملا فى مكتب .

ـ أمعقول هذا يا بنى ؟

ـ ماذا تقصد ؟

ـ إن هيئتك تدل على أنك متعلم وعلى جانب من سعة العيش .

ـ وحدسك صادق فى النظرتين .

ـ وتقبل أن تعمل فى أعمال البناء الشاقة ؟

ـ وأرحب بها .

ـ يا ابنى لن أناقشك فلكل إنسان ظروفه ... هل معك بطاقة ؟

ـ ها هى ذى .

ـ متى تريد أن تسافر ؟

ـ إن كان هناك عمال يسافرون اليوم فما أحب إلىّ أن أسافر اليوم .

ـ إذن فأنت ستسافر اليوم .

ـ أكرمك الله .

ـ اقعد هنا ... فأنت ستسافر بعد ساعة .

* * *

إذن فأنا فى سيناء فى رحاب الوادى المقدس . ما أعظم هذا الذى اختاره الله لى .

نام مع العمال وسمع إلى أحاديثهم فى صمت منه مطبق لا يجيب إلا إذا سأله منهم محب للاستطلاع .

وفى الصباح بدأ العمل وتوالت الأيام حتى اكتملت أسبوعا وهو يقوم بعمله فى طاعة وفى عزم وفى قوة واضحة تفوق عشرات الرجال .

وكان إذا انتهى يوم العمل ترك إخوانه وراح يوغل فى المسير بجانب الجبل ونفسه ترف من الخشوع والسعادة وترقى به إلى مدارج من النورانية الوضاءة المتألقة . وكان منذ اليوم الأول قد اختار مكانا أنس إليه يجلس فيه وتسبح روحه طليقة وهو يقرأ القرآن مخافتا حينا أو مجاهرا .

لم يكن يعرف الأجر المقرر له ولم يسأل ولكنه وجدهم يعطونه فى نهاية الأسبوع الأول عشرين جنيها فرح بها كل الفرح . فالطعام يقدم إليهم مجانا والمبيت أيضا فهو لا ينفق شيئا .

ومضت به الحياة وهو فى سعادة أنسته منيب ذلك القتيل الذى تركه بأعماق الصعيد ، وأنسته أيضا أباه ذلك الطاغية العاتى ، وأنسته أمه أو التى يظن أنها حلت مكان أمه ، والتى كان يحس منها الحنان الدافق يفوح منه عبير الأم السماوى . وأنسته أخاه مأمون وقد كانت علاقته به أقوى من أى أخوة بين أخوين . فقد كان يشعر أنه جزء منه لا يتجزأ .

نسى هذا جميعه فى غمرة العمل عند الصباح ، وقد كان يبدأ مع شروق الشمس . ونسيه أيضا فى ساعات البهجة الروحية الكبرى التى كان يحسها فى مسيره بجانب الجبل وفى جلسته التى أنس إليها وأنست إليه .

ومضى عليه فى عمله وفى أثباج سبحاته العلوية شهر وأربعة أيام . وكأنه فى حلم يحرص أن يحلمه وأن يطول مكوثه فى رحابه .

وفى يوم طال به الجلوس فى مكانه الأثير وغابت الشمس فلم يحس لها غيابا فالنور فى داخله أعظم إشراقا من نورها . ومضت الساعات حتى أحس كأن هاتفا يوحى إليه أن يقوم .

فنهض وأخذ طريقه الذى تعود أن يسير فيه ، وهو يقلب ناظريه فى كل ما يحيط به . وفجأة رأى نارا على مدرجة من الجبل عالية فعجب من ذلك الذى يشعلها هناك . وتملكه حب التعرف فراح يصعد فى الجبل يؤم النار فهى سمته ، وأحس بالجهد ولكنه واصل الصعود دون محاولة منه للتفكير فيما يصنعه . لقد صمم أن يعرف معنى وجود النار فى هذا المكان تصميما ليس له فى دخيلة نفسه سبب واضح . وصعد . ونال منه الجهد كل منال ولكنه صعد . وأخيرا بلغ النار ... مشتعلة هى ولكن النور الذى يخرج أقوى من جذوتها فراح ينظر إليها ويطيل النظر مبهورا دهشا . وجلس وكان الليل باردا قارس البرودة فنشر يديه فوقها علها أن يصيب بعض الدفء ، وما هى إلا لحظة حتى ملكه النعاس .

فنام فى جلسته ويداه ممدودتان فوق النار تمدان كيانه بالدفء والطمأنينة .

وفجأة بدا له فى المنام ذلك الشيخ النورانى .

ـ إلام بقاؤك هنا يا سامى ؟

ـ وما الضير فى ذلك .

ـ أهكذا تريد أن تقضى حياتك ؟

ـ وهل ما زالت لى حياة بعد الذى صنعت ؟

ـ إنك لست علام الغيوب .

ـ أستغفر الله العظيم .

ـ إذن فأمامك الحياة كلها .

ـ فى السجن .

ـ هذا ليس من شأنك .

ـ وهل فى هذا شك ؟

ـ إن الله وحده الذى يعرف ما الذى يخفيه الغد .

ـ أولا تخبرنى ؟

ـ أستغفر الله العظيم .

ـ إذن فكيف أعود إلى الحياة وقد قتلت نفسا بغير نفس .

ـ إنك عائد لا محاله . إن لم يكن اليوم فغدا . فهذا البناء الذ تشارك فى بنائه لن يستغرق من حياتك إلا وقتا ضئيلا

ـ هذا حق .

ـ عد من غدك وانظر فى أمرك .

— والسجن .

— واجه حياتك .

— بما فيها أبى .

— ربما كنت أنت خير من يواجه أباك .

— أنا !

— أنت تحفظ القرآن وأنت عظيم الإيمان وقد وهب الله لك قوة لا مثيل لها ، فمن يواجهه إذا لم تواجهه أنت ؟

— وتهمة القتل التى تلاحقنى ؟

— أنت لم تقتل عمدا ، ولكن تسجن فترة ثم تخرج إلى الحياة خير من أن تحكم أنت على نفسك بالسجن داخل نفسك مدى الحياة .

— هل أعود إذن ؟

— واجه مصيرك .

— وأبى ؟

— وماذا عن أبيك ؟

— إنه أبى .

— وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلىّ ثم إلىّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون .

— أو مشرك هو ؟

— لقد أشرك مع الله نفسه وتأله فى الأرض وأفشى الظلم بين الناس وأصاب منهم الأموال والأرواح .

ـ وماذا أنا مستطيع قِبَله ؟

ـ بالإيمان ستواجهه وبالعلم .

ـ وأخي ؟

ـ ماذا ترى فيه ؟

ـ إنه قطعة مني .

ـ ففيم خشيتك !

ـ سيؤازرني .

ـ فتوكلا على الله .

ـ إنه نعم المولى .

ـ وإنه نعم النصير .

وصحا سامي من غفوته ونظر إلى النار فوجد الجذوة فيها أقوى من النور . فراح يردد كلمات الله سبحانه وتعالى «فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين» صدق الله العظيم .

وصل إلى القاهرة والشمس تميل إلى الغروب ، وركب السيارة العامة التى تؤدى إلى الجيزة وكان قد عرف كيف يركبها من زميله سلمان المعسرانى الذى أشار عليه أن ينزل فى شقة بعمارة بشارع رستم بالجيزة تعوّد صاحب البيت أن يؤجرها لطلبة الجامعات .

نزل فى ميدان الجيزة منفذا تعليمات سلمان وبدأ يسأل المارة عن شارع رستم ، وراح كل واحد يدله عن طريق يتضارب مع الطريق الذى دله عليه الآخر . وتلوى به السبيل وتشابكت الشوارع والسبل ، وأليل الليل وحل الظلام إلا قليلا من نور يتلصص من نوافذ المنازل . وفى عتمة من طريق سمع أصوات قوم تأتى إليه خافتة ولكنها حاسمة . وكان سامى ذا سمع حاد فاقترب قليلا ثم رأى ثلاثة نفر ملتفين حول فتاة وسمع أحدهم :

ــ ستأتين معنا شئت أم أبيت .

ولم يسمع سامى إجابة .

وسمع صوتا آخر يقول :

ــ لو علا صوتك ستجدين هذه المطواة فى صدرك .

واختبأ سامى ثم ألقى النظر خفية فرأى أحدهم ممسكا برأس الفتاة وهى تقاوم مقاومة عاجزة . ونفض سامى الطريق بعينيه فوجد النور المتهافت قادما من شباك يقع فى الناحية التى يختبىء فيها ، ووجد ما يقرب من سعة متر على طول المسافة التى تفصل بينه وبين المجرمين معتمة تماما . فالتصق بالحائط وراح يخطو خطوات

جانبية إلى المعتدين لا يرونه حتى انقض فجأة على ذلك الذى يطوق وجه الفتاة ورمى به إلى الأرض . وفى لمحة خاطفة كان الأثنان الآخران على الأرض مع زميلهما ، وحاذر سامى أن يضرب بكل قوته حتى لا يصل الأمر إلى جريمة أخرى : فقد كان وهو يخطو خطاه المتئدة المحاذرة يفكر فى رؤية أنقذت المعتدين وأنقذته أن يرتكب جريمة أخرى .

قال للفتاة :

ــ لا تخافى .

ــ الله يحميك .

ــ لن أترك هؤلاء حتى أذهب بهم إلى الشرطة ... أين الشرطة ؟

ــ قريبة من هنا .

ــ فهيا بنا .

ــ وكيف ستثبت للشرطة ؟

ــ تقولين الحقيقة .

ــ وماذا يجعلهم يصدقون .

ــ سيعترفون .

ــ لن يعترفوا .

ــ سأجعلهم يعترفون .

ــ لن تصدق الشرطة شيئاً . ولن تصدق أن شخصاً واحداً تغلب على ثلاثة مجرمين ، وسوف تظن أنك أنت الذى هددتهم بالسلاح .

— إذن أتركهم ؟؟

— هذا رأيى .

— وحق المجتمع ؟

— منهم إلى الله .

— لقد قلتها . إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . لابد أن أذهب إلى الشرطة . هلم أريني الطريق إلى الشرطة .

وعجبت الفتاة وهي ترى سامى ممسكا بالثلاثة وهم مستسلمون له في غير عناد ودون أن يستعمل سلاحهم ، بل إنه أمر الذى كان ممسكا بالسلاح أن يطويه ويضعه فى جيبه ففعل . وازداد عجب الفتاة وهى ترى المجرمين الثلاثة ينقادون لسامى وكأنهم واقعون تحت سيطرة قوة عليا لا يملكون منها فكاكا . وسار الركب إلى قسم البوليس وألقى سامى بحمله أمام المسئول . وأدلت الفتاة باسمها وعرفه سامى . إنه رشيدة مسعود النبوى . طالبة بالسنة الأولى بكلية الآداب . وتمت كتابة المحضر . وحجز المتهمون الذين وجدوا أنفسهم يعترفون بجريمتهم دون أى مقاومة فقد كانت نظرات سامى كافية لتجعلهم يفقدون كل سيطرة على عقولهم . ووقع سامى فى حيرة حين سأله المحقق عن عنوانه إلا أنه سرعان ما قال الحقيقة عن عودته من سيناء ومن أنه فى طريقه إلى شارع رستم . وحين سأله المحقق أين نخاطبك إن أردنا شهادتك ؟ تطوعت رشيدة بالقول :

— خاطبوه عندنا فسوف أعرف عنوانه .

وخرج سامى ورشيدة .

ـ لا أعرف كيف أشكرك .

ـ إنها الصدفة وحدها .

ـ أين أنت ذاهب ؟

ـ كما سمعت .

ـ وهل تضمن وجود مكان بهذه الشقة .

ـ عليّ أن أجرب .

ـ تعال معى إلى أبى .

ـ الآن ؟

ـ لابد أن يتعرف بك ولابد أيضا أن أروى له ما حدث حتى يعرف فيم تأخرت .

ـ إذن هيا .

وبلغا العمارة ... كانت عمارة متوسطة الحال ، وفى أواسط العمر بناها صاحبها قبل أن يدمر الحاكم الصلات بين المالك والمستأجر بتلك القوانين التى أوقفت البناء فى مصر تماما . كانت رشيدة تسكن مع أبيها فى الطابق الثانى من العمارة . وكان السلم معتماً ولم يستطع سامى أن يرى شيئا واضحا من ملامح رشيدة فقد كان لقاؤهما فى الظلام . وكان النور خافتاً كل الخفوت فى قسم الشرطة فكان كل ما يعرف عن كيان رشيدة أنها فتاة نحيلة ذات وجه ضامر مع أن معرفته بها كانت قد تجاوزت عدة ساعات قضاها فى صحبتها .

وحين بلغا الشقة فتحت رشيدة الباب بمفتاح معها ودخلت وأوقدت النور في البهو ورآها . فتاة صبيحة الوجه هادئة القسمات ذكية العينين تحكم وثاق شعر لا يثور ولا يتمرد ، تلبس فستاناً جميلاً في تواضع وفي غير بهرجة . ورأت هي فيه فتى مطمئن الملامح حاد القسمات فارع الطول في عينيه سماحة حاسمة وفي فمه هدوء الإيمان وقوته في آن واحد .

في لمحة من لحظة عرف كل منهما وجه الآخر ، وصوت الأب يعلو من إحدى الحجرات .

— أهذا أنت يا رشيدة ؟

وتجيب رشيدة في حب واحترام :

— نعم يا أبي .

— تأخرت تعالى .

وتقول رشيدة في صوت هادئ لسامي .

— تعال .

وتقصد إلى الباب المواجه لباب الدخول وتدخل ثم تردد لسامي .

— تفضل .

ويسمع سامي الأب وهو يقول :

— من ؟

وقبل أن تجيب رشيدة تضمهم جميعا غرفة مكتب يجلس في صدرها رجل واضح الطيبة زكي الطلعة يلبس نظارات سميكة تدل

دلالة واضحة على مقدار ما يعانى من ضعف البصر . وتقول رشيدة :

ــ أبى ، هذا سامى زين الرفاعى .

ويقول الأب ذاهلاً :

ــ أهلا وسهلا يا ابنى . تفضل . اقعد .

وقعد .. وتقول رشيدة :

ــ أنقذنى يا أبى من هلاك محقق ... كنت فى طريقى إلى المكتب بعد أن سلمت أوراقاً كتبتها على الآلة فى شارع رستم فإذا ثلاثة رجال ...

وراحت رشيدة تقص على أبيها فى أمانة وفى إسهاب كل ما وقع لها فى ليلتها تلك وسامى يرقب وجه الأب الذى بدا له وكأنه صفحة نقية يرتسم عليها كل ما يعتمل فى نفس الأب من خوف ومن غيظ ومن إعجاب ومن سعادة . حين انتهت رشيدة من قصتها التفت الأب إلى سامى .

ــ شكر الله لك يا بنى وكافأك أحسن ما تكون المكافأة .

وتقول رشيدة وكأنها تستدرك :

ــ يا سامى ، أبى الدكتور مسعود النبوى أستاذ تاريخ بكلية الآداب .

ــ أهلا يا أستاذنا ... أهلا وسهلا

ــ أهلا بك يا ابنى .

ثم التفت إلى ابنته .

ـ أما زلت مصرة على العمل فى مكتب الآلة الكاتبة هذا ؟

ـ إذا لم تمنعنى يا أبى فأنا احب أن أعمل ، ولكننى أعدك أننى لن أذهب بعد اليوم إلى أحد بأوراقه .

ـ وهل تذهبين عادة ؟

ـ لهذا الزبون فقط فهو مقعد وأنا أشفق عليه . وهو يعيش مما يكتبه للإذاعة ومرتبط بمواعيد ولكن هذا جميعه لن يجعلنى أسير فى الشوارع المظلمة وحدى بعد الليلة أبداً

والتفت الدكتور إلى سامى .

ـ يا ابنى لا تعجب فأنا أعمل أستاذاً متفرغاً كما يقولون وهى من أسماء الأضداد ، فقد خرجت على المعاش من سنة تقريبا ولا أحاضر إلا ثلاث محاضرات فى الأسبوع ، وأنا احاول أن أكتب كتابا عن تاريخ التحضر فى الشرق الأوسط فأنا منصرف إليه . ودخلنا لا يكفى أدويتى ومراجعى ونفقاتنا ولهذا رأت رشيدة أن تستعين على الحياة وتعيننى .

ـ أنعم بكما وأكرم .. أب عظيم وابنة عظيمة .

ـ أكرمك الله يا ابنى .. وأنت من أين ؟

ـ أنا .. من الصعيد . وجئت إلى مصر وذهبت إلى سيناء وقدمت منها الليلة بأمل البقاء هنا وكنت فى طريقى إلى شقة طلبة سمعت عنها فى شارع رستم .

وأدرك الدكتور الذكى أن هذا فقط ما يريد محدثه أن يقوله عن سه فلم يسأل سؤالا واحدا يجعله يقول ما لا يريد وإنما قال له :

— وهل سكنت في هذه الشقة التي تقول عنها قبل اليوم ؟

— أنا لم أحضر إلى القاهرة قبل هذه المرة .

ونظر الدكتور إلى رشيدة :

— رشيدة ، الحجرة التي يسكنها عبد السلام ما شأنها ؟

— خالية يا أبي .

— هل أخذ عبد السلام ما له فيها ؟

— نعم ، فقد حصل على الليسانس وأحسب أنه لن يعود في العام القادم .

والتفت الدكتور إلى سامي .

— أقم بهذه الحجرة ، وبها حمام أيضا وتصلح لك .

وارتبك سامي قليلا وهم أن يقول شيئا ولكن الدكتور يعاجله :

— اسكن بها أولا . وستتحدث عن الأجرة في الغد بعد أن تستريح اليوم من عناء السفر والعراك وحماية ابنتي من الذئاب .

خذيه يا رشيدة إلى الغرفة ولا أوصيك به ففضله علينا كما تعرفين عظيم .

وصعد سامي إلى الغرفة ومعه رشيدة تحمل ملاءات نظيفة فرشتها له على السرير ، وتركته بعض الوقت وعادت له بالعشاء واستقر به المقام بعد يوم طويل عصيب .

* * *

في الصباح الباكر كان سامي بمقر التليفون العمومي وطلب منزل أبيه في البلدة مقدرا أن الأجازة الصيفية لم تنته بعد وأن مأمون ووالدته سيكونان بالقرية .

وأجاب مأمون على التليفون ، وما أن سمع صوت أخيه حتى صاح :

— سامي أين أنت ؟ منيب لم يمت : كان مغمى عليه فقط

— أحقا .. أحقا ؟

— إننا نبحث عنك في كل مكان ، أين أنت ؟

— أنا في مصر .

— عنوانك ... ما هو عنوانك ؟

— ما أخبار نتيجتي .

— أحرزت تسعين في المائة من الدرجات ، وقدمت لك في كلية الآداب قسم التاريخ كما كنت تريد .. عنوانك ؟

— تعال إلى اليوم أوغدا يا مأمون واكتب عنواني :

خمسة وخمسين ميدان وجدى بالجيزة .

— كلّم يا سامي ، كلّم .

وتكلمت إليه الأسرة جميعا وهو يكاد يطير من الفرح . وتنتهي المكالمة ويخرج إلى أقرب جامع ويروح يصلي ركعات لا عدد لها شكرا لربه .. لقد كان ينتوي أن يظل هاربا من الحياة كلها من أجل جريمة توهمها ولم تقع .

وحين انتهى من صلاته انتحى من الجامع ركنا وراحت الدموع تنسكب من عينيه راوية بالسعادة ، وكأنما أراد أن يغمر بهذه السعادة كل جارحة من جسمه لا يكتفى بها هادرة صاخبة فى القلب وحده .

عاد إلى البيت . وصعد إلى غرفته قفزا .. فوجد رشيدة تنظم الحجرة .

ـ وبعد يا ست رشيدة ؟

ـ أين ذهبت ؟

ـ تعالى معى .

ـ إلى أين ؟

ـ هل صحا الدكتور ؟

ـ نعم .

ـ إذن فتعالي معى .

وقصدا إلى الدكتور وراح يقص عليه قصته جميعا لم يخف عنه حتى ما عرفه عن أبيه من طغيان وظلم . والدكتور يسمع فى هدوء لا يقاطعه وإنما يلاحقه وسامى يحس أن الرجل يشعر بكل خلجة فى صوته أو فى صدره حتى إذا انتهى من الحديث جاءه صوت الدكتور وكأنما يتصاعد إليه من أعماق بئر بعيدة الغور .

ـ بارك الله فيك يا بنى ووفقك فى كل ما تسعى إليه .

وظلت رشيدة فاغرة فاها فى دهشة بالغة وكأنما لم تكن تتصور أن هذا الفتى الحدث يستطيع أن يدرك معانى الخير والجبروت بكل هذا الصدق والإيمان والوضوح .

* * *

فى اليوم التالى كانت غرفة سامى تغص بأبيه وأمه ومأمون وفواز جميعا لا يصدقون عيونهم أنهم يرون سامى ، ثم يقول الأب :

ـ منذ الغد أبحث لك عن شقة مفروشة تليق بك .

ويقول سامى :

ـ إن هذه الغرفة هى التى تليق بى .

ويقول الأب فى غضب .

ـ ماذا تقول ؟.. أتريد أن تشهر بى بين الناس ويقولوا إنه تارك ابنه فى حجرة فوق السطح ؟

ـ أى ناس يا أبى ؟ إننا هنا فى القاهرة ولا أحد هنا يعرف الآخر ، وهذه الحجرة تكفينى بل وتكفى معى مأمون أيضاً . وفواز .

ـ ماذا .

ـ ليس من المعقول أن يتعلم كل منا فى ناحية .. القاهرة تستطيع أن تعلمنى وتعلم مأمون وقد علمت العرب أجمعين .

ويلتفت زين إلى الأم :

ـ أيعجبك هذا الكلام ؟

وتقول الأم فى فخر :

ـ إنه خير كلام . إنه يريد أن يتعلم ولا يريد المظاهر الفارغة ولا يحتاج إليها .

— فإن جئنا لزيارته ؟

— نزوره ونبيت فى الفندق الذى سنبيت فيه الليلة .

وأحس الأب بالخذلان ثم التفت إلى سامى :

— ألا تأتى معنا حتى تنتهى الإجازة ؟

— بل أنا الذى سأبقى مأمون معى وفواز حتى تنتهى الإجازة ، ثم أدخل أنا إلى الجامعة .

— وفيم بقاؤكم لبداية الدراسة ؟

— لأقدم لمأمون فى مدرسة السعيدية القريبة من الجامعة ، ونعد أنفسنا للقاهرة ونتعرف عليها ... فهى مقامنا الجديد .

وأطرق الأب قليلا . ثم قال :

— خذ .

وأخرج حافظته وراح يعد ثم أعطى سامى مبلغا من المال . ونظر سامى إلى المال وخيل إليه أنه يقطر دما ، وأوشك أن يرفض ولكنه فى لحظة رأى نورا يحيط بالمال ، وأزمع أمرا ومد يده وتناول المبلغ الذى لم يتبين عدده ، وقال الأب :

— هذا المبلغ مائتا جنيه وسوف أرسل لك كل شهر مثل هذا المبلغ لك ولأخيك .

وأوشك سامى أن يقول : هذا كثير ، ثم ما لبث أن قمع الجملة فلم تخرج وإنما نطق بدلا منها كلمة واحدة .

— شكرا .

ونظرت الأم نظرات عميقة فى عينى ابنها وكأنما تبينت ما فيهما فقد كانت تنتظر أن يطلب إلى أبيه أن ينقص المبلغ إلى الربع

أو النصف . ودهشت من هذا الشكر المستسلم الذى أبداه حتى إذا أنعمت النظر فى عينى ولدها حل الرعب مكان الدهشة وتعالت أنفاسها ولم تقل شيئا .

وخرج الأبوان ليسافرا وخرج معهما فواز ليعود بحقيبة مأمون وحقيبته . وما أن خلت الغرفة بمأمون وسامى حتى وجد كلا الأخوين نفسه مندفعا إلى أحضان أخيه ، وراح كل منهما يضم الآخر وكأنما يريد كل منهما أن يصبح جزءا من كيان الآخر . وانهمرت دموع فرح وشوق وحنين .

وحين جلسا قال مأمون :

ــ سامى إنك تضمر شيئا .

ــ نعم .

ــ قله .

ــ بل انتظر .

ــ أتخفى عنى ؟

ــ لو أخفيت عن نفسى ما أخفيت عنك .

ــ إذن .

ــ هى فكرة بدت لم تتضح معالمها ، لن أطلعك عليها إلا حين تصبح صالحة أن أفكر فيها .

ــ وأنا قبلت .

* * *

قال الدكتور لسامى :

ــ سامى ماذا أنت صانع فى وقتك ؟

ــ تقصد أوقات الفراغ ؟

ــ هذا ما أقصد ... وأنت منذ الآن فى فراغ حتى تفتح الجامعة ، ثم أنت بعد أن تفتح الجامعة لن تحتاج إلى وقتك كله للمذاكرة ...

ــ أعلم ذلك ...

ــ إذن ؟

ــ قل لى أنت يا دكتور ما الذى جعلك تسألنى هذا السؤال ؟

ــ ربما كان لى فى ذلك مأرب .

ــ إنه أمر عجيب !

ــ ومن أين العجب ؟

ــ إننى كنت قادما إليك من أجل هذا .

ــ كنت قادما من أجل ماذا ؟

ــ لأبحث عن عمل لى وعمل لأخى .

ــ ولكن كيف ؟

ــ كيف ماذا ؟

ــ ألا يرسل أبوكما لكما ...

ــ إنه فى الحقيقة يعطى كلا منا مبلغا كبيرا أكثر مما نحتاج إليه ولكننى لا أريد أن أمس هذه الأموال .

ــ تريد أن تعتمد على نفسك ؟.

ـ نعم .

ـ وماذا أنت صانع بهذه الأموال ... هل ستردها إلى أبيك ؟

ـ بصورة أو بأخرى .

ـ ونعم الأبناء أنتما !

ـ رعاك الله .

ـ إذن فاسمع ... أنا أريدك أن تعمل معى وتقرأ لى فأنت لاشك قد لاحظت ضعف بصرى .

ـ ما أعظم هذه الوظيفة .

ـ أما أخوك مأمون فسأجعل رشيدة تعلمه الكتابة على الآلة الكاتبة ويعمل معها فى المكتب الذى تعمل به .

ـ أعجز عن شكرك .

* * *

مر عام وانتصف العام الآخر ولم يذهب سامى ولا مأمون إلى البلدة بحجة أنهما فى القاهرة يعملان ، ولكن الواقع أنهما كانا لا يريدان أن يذهبا إلى القرية قبل أن يتما تعليمهما . وكان الأب كثيرا ما يزورهما فى القاهرة ، وكثيرا أيضا ما كانت أمهما تأتى معه .

* * *

نما حب ناعم نضير طهور بين سامى ورشيدة . لم يجرؤ أن يظهر إلا فى نظرة عين تطفر فلا يستطيع أن يكبح جماحها . أو فى

ابتسامة منها تلاقيها ابتسامة منه لا تطيق أن تحجبها ويعجز عن إجابتها . وحزم أمره بعد روية وتدبر :

ــ دكتور لى كلمة .

ــ قلها .

ــ أعلم أننى طالب ما أزال .

ــ قل ما تريد ولا تطل فأنا لم أتعود منك أن تقول كلمة إلا فى موضعها .

ــ إننى أحب رشيدة كل الحب .

ــ وهى ؟!

ــ ما كنت لأسألها .

ــ باركك الله .

ــ إذا قبلت ... أكون ...

ــ وإذا لم تقبل .

ــ سأترك البيت . فأنا أدخل بيتك كثيرا .

ــ لا تكمل .

* * *

ــ ما رأيك يا رشيدة ؟

ــ ما رأيك أنت ؟

لا أستطيع أن أقول إلا إذا عرفت مكانه منك .

ــ أبى ... إنى أحبه . وإنى أقدره .

* * *

وانقضت سنوات الدراسة ونال سامى ورشيدة ليسانس الآداب . وبقيت سنتان دراسيتان أمام مأمون ليتخرج في كلية الحقوق .

وكان على سامى أن يودى الخدمة العسكرية . فذهب إلى المكان العسكرى الذى حدد له وتمت الإجراءات وبدأ سامى يبيت فى المعسكر حتى يتم توزيع القادمين على مختلف الأسلحة .

وكان الوقت صيفا وكان سامى وزملاء له كثيرون يتحلقون حلقات في ضوء القمر . وكان سامى يستمع بينما كل منهم يروى ما تعن له روايته ... فمن حكايات ضاحكة إلى مآس إلى قصص أخرى لا تضحك ولا تبكى وإنما تروى لينقطع بها الوقت وتهون ملالته . وفى لحظة صمت الجميع كأنما لم يجد أحد منهم شيئا يقول . كان السكوت لحظة أو أقل. وإذا بواحد منهم يقول : أليس بينكم من يحفظ القرآن أو شيئا منه . وقال سامى :

ــ أنا أحفظه أو أحفظ الكثير منه والحمد لله .

وسأله آخر :

ــ أتستطيع أن تجود ؟

وقال سامى :

ــ أظن ذلك .

وقال آخر :

ــ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ، سمعنا أكرمك الله .

وتهيأ سامى وبدأ :

— أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم اللّه الرحمن الرحيم ، « سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى . والذى أخرج المرعى . فجعله غثاء أحوى . سنقرئك فلا تنسى . إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى . ونيسرك لليسرى . فذكر إن نفعت الذكرى . سيذكر من يخشى . ويتجنبها الأشقى . الذى يصلى النار الكبرى . ثم لا يموت فيها ولا يحيا . قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى . بل تؤثرون الحياة الدنيا . والآخرة خير وأبقى . إن هذا لفى الصحف الأولى . صحف إبراهيم وموسى . » صدق اللّه العظيم .

كان سامى حين يقرأ ينصرف بجميعه إلى آيات اللّه فلم ير الذهول من حوله وصموت الكون وخشوع الكائنات جميعا حتى كأن القمر والأنجم قد اقتربت تتسمع إلى صوت لم يسمعه الخلق من قبل ، ومن كل حدب وناحية أقبل من فى الثكنات مبهورين يسيرون هونا لا يصدر صوت من خطواتهم يشوب هذا الجمال الإلهى الجرس الربانى النغم .

وحين انتهى سامى من قراءته هوم الصمت المأخوذ على الجميع وازداد القمر تألقا وبدت الأنجم وكأنما ترسل كل واحدة منها شعاعا فيه عطر السماء تحية للصوت المتخشع الرخيم . فلم تكن روعة الصوت وحدها هى التى أخذت بكل هذه المخلوقات وإنما خشوع الرنين وإخباته وكأنه متبتل يصلى فى محراب . وفجأة ارتفعت أصوات الإعجاب . وقال قائد الثكنة :

— سبحان المعطى الوهاب ، ما اسمك يا ابنى ؟

وذكر سامى اسمه ورقم تجنيده .. وقال القائد :

— أنت معى فى مصر إن شاء اللّه .

ـــ أمرك .

ـــ وفي أي سلاح تريد أن تتم خدمتك ؟

ـــ تمنيت يا سيادة القائد لو أنني أتقنت التصويب .

ـــ ولك ما تريد بعون الله .

وهكذا أصبح سامي من خيرة الذين يصوبون .

وأتم سامي خدمته العسكرية بأحسن ما يتاح لمثله ، فكان يبيت معظم الأيام مع زوجته ويذهب إلى الثكنة في باكر الصباح .

* * *

وعين سامي بمدرسة في الزمالك وعينت رشيدة بمدرسة في الجيزة

شملول وصبيحة هذان الحبيبان اللذان أبيا الظلم . وأبى معهما أهلوهم أن يستضعفوا فى أرض قريتهم فهاجروا إلى أرض اللّه الواسعة ليجدوا مرغما كثيرا وسعة . وقد وجدوا ذلك الملجأ الفسيح عند أقاربهم فى القاهرة . وانفتحت أمامهم أبواب الرزق ، يمثلون الإنسان حين يستكبر أن يعتو عليه إنسان مثله ، ويمثل العاشقان منهما اسمى ما فى الحياة من معانى الحب ، تلك النسمة من نسائم الجنة التى شاء اللّه فى عالى سمائه أن يرسلها مع آدم وحواء حين أمر بهما أن يتركا جنته الفيحاء إلى هجير الأرض .

فإذا ذلك الحب يصبح موئل البشرية وملاذها ومراحها ونداها يرطب به سبحانه وتعالى عداوات البشر فى تلك الحياة الدنيا التى تشابكت فيها المطالب وتصاخبت ، فإذا أبناء آدم بعض لبعض عدو إلى يوم الدين .

حين احتجب الحب بين قابيل وهابيل قتل الأخ أخاه ، وحين عاد الحب يتنفس فى أحناء قابيل وارى سوأة أخيه . وهكذا بدا الحب مع البغضاء فى الأرض نسمة من نسائم الجنة لولاه لفنيت البشرية منذ عصورها الأولى وانتهت الحياة .

شملول وصبيحة زوجان يشد كل منهما إلى الآخر منبت القرية والمهجر إلى القاهرة ، ثم الزواج فكانت بينهما مع الحب المودة كل المودة والرحمة كل الرحمة وسكن شملول إلى صبيحة وأنجب لهما الزواج ماهر ثم مختار . وكان شملول يعمل بالزمالك فى متجر الفاكهة ، ثم ما لبث أن أصبح صاحب المتجر جميعا . فكان يصحب ولديه إلى المدرسة الأعدادية بالزمالك ويعود بهما فى الظهيرة . وحين يعود هو إلى دكانه يتركهما بين يدى صبيحة

ترقبهما في المذاكرة ، ثم يصحبان التليفزيون إن راق لهما أن يصحباه أو ينزلان إلى أصدقائهما بينهم زملاء دراسة وجيران ، وبينهم جيران غير زملاء .

وصبيحة حريصة دائما أن تعرف منهما في ملاينة ودون إثقال كل أنباء المدرسة وأسماء المدرسين .

وأخبرها ماهر ثم أخبرها مختار بأسماء المدرسين الجدد الذين وفدوا إلى المدرسة ، وذكر اسم سامي فيمن ذكر ولم تول الاسم أي اهتمام وما سامي بالنسبة إليها ، وكم من « سامي » في الحياة .

والعجيب أن سامي حين دخل الفصل الذي به ماهر وسأل الطلبة عن أسمائهم وقال ماهر اسمه شملول القط لم يلتفت سامي إلى الاسم على الرغم من أنه اسم ليس مثل كل الأسماء ، ولكنه عبره دون التفات . وكذلك كان شأنه في فصل مختار أيضا ، ومرت الأيام فلا بيت ماهر ومختار علما أن ابن الذي أخرجهم من ديارهم يدرس لابنيهما ، ولا سامي يعرف أن من بين تلاميذه ذرية قوم عتا عليهم أبوه كل عتو .

وفي يوم . بينما كان سامي يدرس للفصل الذي فيه ماهر ، وحين كان موليا ظهره للفصل يكتب على السبورة تعالت إلى أذنه ضجة هامسة ، فالتفت فجأة فوجد ماهر محور هذه الضجة فاستدعاه .

ـ تعال أنت .

فقد كان ناسيا لاسمه .

وتقدم ماهر وجلا حتى وقف إزاءه .

ـ ما هذه الضجة ؟

ـــ لا شيء يا أستاذ .

ـــ بل هناك شيء .

ـــ أنا لا ذنب لى .

ـــ ربما ، ولكن اللغط يدور حول مقعدك

ـــ اسألهم سيادتك .

ـــ ماذا هناك يا أولاد ؟

وساد صمت ، فأشار سامى إلى التلميذ الجالس بجوار ماهر .

ونظر إليه نظرة عميقة ، ووجد الطالب نفسه يقول كل شئ .

ـــ ماهر .

وقال سامى .

ـــ ماهر من ؟

قال التلميذ .

ـــ ماهر هذا .

والتفت سامى إلى ماهر :

ـــ هل اسمك ماهر ؟

ـــ نعم يا أستاذ .

وعاد سامى إلى التلميذ الآخر وسأله .

ـــ هه . ماذا فعل ماهر ؟

ـــ أحضر معه بعض حبات من المشمش وراح يأكلها فى الفصل

ـــ مشمش !؟

ـــ نعم .

ـــ وبعد ؟

ـــ راح التلاميذ يطلبون منه أن يعطيهم شيئا مما يأكل .

ـــ هذا كل ما فى الأمر ؟

ــ نعم .

ــ لماذا تأكل المشمش فى الفصل يا ماهر .

ــ أكلت حبة واحدة يا أستاذ .

وقال سامى فى محاولة أن يزيل الخوف عن ماهر الذى رأى علامات الرعب بادية فى عينيه .

ــ هل اشتريت المشمش وأنت قادم إلى المدرسة ؟

وازدرد ماهر لعابه من الخوف ، وتعالت فى الفصل ضجة سمع منها سامى كلمة أبوه ولم يتبين ما يليها . فرفع يده إلى التلاميذ وساد الصمت والتفت إلى ماهر :

ــ ما اسمك كله يا ماهر ؟

ــ ماهر شملول القط .

وأعاد الأسم كل ما يحيط باسم شملول من ذكريات ، وتذكر قصة ذلك الفتى الذى أوقع أبوه بأهله أفدح الظلم . وشك أن يكون شملول أبو ماهر هو نفسه شملول الذى سمع قصته فيما سمع عن مظالم أبيه . وأعاد الاسم على مسامع ماهر :

ــ ماهر شملول القط :

ــ نعم يا أستاذ .

ــ ما صناعة أبيك ؟

وعلت أصوات التلاميذ حتى ابتلعت صوت ماهر وهو يقول فى صوت خفيض . فقد قالوا جميعا صناعة أبيه فى أصوات مختلطة لم يتبينها سامى .

ــ فاكهى .

وأشار سامى إلى الفصل أن يصمت ، فصمت التلاميذ . وسأل ماهر :

_ ماذا ؟

وقال ماهر .

_ فاكهى .

ولم تكن صناعة الأب ذات شأن فيما ثار بنفسه من شك حول اسم شملول .

_ ومالك لا ترفع صوتك ؟... لا تخف يا ماهر أنت لم تصنع شيئا يستحق منك هذا الخوف . قل لى يا ماهر هل أبوك من مصر أم من الأرياف ؟

_ أنا يا أستاذ ولدت بمصر ، ولكننى أعرف أن أبى من الصعيد .

وبدأ خيط من نور يخترق الشك الغامض :

_ ألا تعرف من أى بلدة فى الصعيد ؟

_ أظن يا أستاذ من بلدة اسمها التمرة .

وانقطع الشك باليقين . لا شك إذن . وجلس سامى وصمت طويلا ثم قال لماهر :

_ لا بأس عليك يا ابنى لن أمسك بأى سوء . اهدأ . اهدأ تماما واذهب إلى مكانك .

وأكمل سامى الدرس حتى إذا دق الجرس وبدأ التلاميذ يخرجون إلى الفسحة ، نادى سامى تلميذه ماهر وسأله :

_ أين دكان أبيك يا ماهر ؟

وتلجلج ماهر وهمس أحد التلاميذ إلى الآخر « الظاهر الأستاذ يريد أن يتعشى فاكهة الليلة » . وضحك الذين سمعوا التعليق ولم

يلتفت سامي إلى ضحكهم وانتظر حتى خلا الفصل به وبماهر وقال له :

ــ لا تخف . أنا أريده في شيء خاص بعيد كل البعد عنك .

واطمأن ماهر وقال :

ــ في شارع حسن صبرى يا أستاذ .

ــ وهل يذهب أبوك بعد الظهر إلى الدكان ؟

ــ نعم .

ــ إذن فأخبره أننى قادم إليه اليوم فلينتظرنى .

ــ أمرك يا أستاذ .

ــ هل أنت وحيد أبيك ؟

ــ بل لى أخ وهو تلميذ هنا فى السنة الثانية واسمه مختار .

ــ أحضره لى غدا فى غرفة المدرسين لأتعرف عليه .

ــ أمرك يا أستاذ .

ــ مع السلامة يا بنى .

صحب سامي رشيدة وذهب إلى شملول . واشترت رشيدة بعض الفاكهة . وفجأة قال سامي دون أن يوجه الحديث إلى أحد بعينه من الواقفين بالدكان :

ـ من شملول ؟

وتقدم إليه فتى سمهرى القامة طيب الملامح بادى الوسامة .

ـ أنا شملول .

ـ أنا سامي مدرس ابنيك ماهر ومختار .

ـ مرحبا أهلا وسهلا . شرفت ، هات كراسي يا درويش .

وجلس ثلاثتهم أمام الدكان وبدأ سامي :

ـ أنت من التمزة ؟

ـ أتعرفها ؟

ـ كل المعرفة .

ـ لا أحسب أنك سامي الذى نعرفه .

ـ من سامي الذى تعرفه ؟

ـ سامي زين الرفاعى .

ـ أيغضبك أن أكون هو ؟

ويصمت شملول فترة ، ويقول سامي .

ـ وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه .

ويقول شملول فى استسلام :

ـ صدق الله العظيم .

ـ اسمع يا شملول لقد وقع عليك من أبى ظلم فادح .

ـ إذن فأنت تعرف أنه ظلم .

ـ الظلم الذى وقع على من أبى أشد .

وظهرت الدهشة على ملامح شملول وقال :

ــ عليك أنت .

ــ الظلم الذى وقع عليك من أبى ظلم واحد ، أما الظلم الذى وقع على فهو كل ما أوقعه بالناس من قهر ومن اغتصاب لحقوقهم .

ــ أوَتشعر أنت بمعنى تحمل القهر ؟

ــ أشعر كأننى أنا الذى ارتكبت كل هذه المظالم ، أو أشعر كأننى أننى الذى وقعت عليه .

ــ أوَتريد أن تعتذر عن أفعال أبيك ؟

ــ بل أريد شيئا أكبر من هذا .

ــ ماذا ؟ !

ونظر شملول إلى رشيدة مندهشا فأومأت برأسها أن نعم .

وقال شملول :

ــ هذه زوجتى رشيدة وهى مدرسة أيضا .

وقالت رشيدة :

ــ صدقه يا شملول .

ــ أمعقول هذا الذى يقوله يا ست ؟

ــ إنه يعيش فى جحيم مما يصنعه أبوه بالناس .

ــ إذن فهو ليس لابنه .

وتقول رشيدة :

ــ أنت تعرف أمه ؟

ــ كانت أشرف الناس .

ــ إذن فاعلم أن أخاه مأمون أيضا يعيش فى جحيم مثله مما صنعه أبوهما بالناس .

ـ أيصدق أحد هذا ؟

وتقول رشيدة :

ـ ومالك لا تصدقه .

ـ إنه لا يدخل العقل .

ـ ففيم تظنه قد جاء إليك وصحبنى معه .

ـ لا أفهم .... ربما ..... ربما .

ـ نحن فى القاهرة . نبعد عن التمرة مسافات ومسافات . ما كان أحراه أن يخفى أمره عنك وعن ولديك .

ـ آمنت بالله ..

ويقول سامى :

ـ جل شأن الله .

ـ فهل أطمع أن تعتبرنى صديقا لك ؟

ـ هذا أمر يسير ، وقد تم فعلا . ولكن أيكفى هذا ؟

وينعقد لسان شملول وينفتح فمه فى ذهول ، ويجمع الحروف لتصبح كلمات ويقول :

ـ إلى أى طريق تسير بالحديث يا سى سامي ؟

ـ إلى طريق الحق والنور والعدالة إن شاء الله .

ـ إن قلبى يوشك أن يقف من الخوف .

ـ بل قلبك سينتعش بالفرح إن شاء الله . من كان مثلك لا ينبغى أن يعرف الخوف .

ـ ماذا تريد أن تفعل ؟

ـ إننا كلنا سنفعل إن شاء الله .

ـ أنا أريد أن أعيش حياتى .

ـ وحقك الذى تركته هناك ؟

ـــ لقد مرت سنوات طوال .

ـــ مرور السنين لا يسقط الحق .

ـــ لقد أعدت إلى الحياة ما أماتته السنوات .

ـــ إن العدالة ينبغي أن تكون أساس الحياة .

ـــ أتريد أن ننتقم من أبيك ؟

ـــ أستغفر الله .. ليس الثأر ولا الانتقام مما يرضى الله عنه .

ـــ أنا فى حيرة مما تقول .. ماذا تريد أن تفعل أو ماذا تريدنا أن نفعل ؟

ـــ أنا قادم إليك فى بيتك .

ـــ أهلا بك وسهلا .

وقالت رشيدة :

ـــ وأنا قادمة معه .

ـــ يا مرحبا .

وقال سامى :

ـــ وسيأتى معى أخى مأمون ونريد أن نلتقى بصبيحة ونتعرف عليها . ثم نجلس معك أنت وصميدة ومحمود .

وقال شملول فى بعض دهشة :

ـــ كأنك تعرفنا جميعا .

ـــ وأعرف عن أموالكم التى فى التمرة مالا تعرفون جميعا .

ـــ أكاد لا أصدق .

ـــ اكتب هنا عنوانك .

وأعطاه ورقة وكتب شملول عنوانه وهو يقول :

ـــ حسبتك تعرف عنوانى أيضا .

ويبتسم سامى فى جذل ويقول :

ـ ما كان أسهل على أن أعرفه من ولديك .

ويضحك شملول وهو يقول :

ـ آه صحيح .. نسيت هذا .

ـ متى يناسبك أن نأتى ؟

ـ الأمر إليك .

ـ خير البر عاجله .

ـ والأستاذ مأمون ماذا يعمل ؟

ـ أستاذ كما ذكرت .

ـ مدرس أيضا .

ـ بل تخرج فى الحقوق هذا العام .

ـ على بركة الله .

ـ أيناسبك أن نأتى فى الغد ؟

ـ تشرف فى أى وقت .

ـ غدا فى السادسة إن شاء الله . السلام عليكم .

ـ مع ألف سلامة .

* * *

اجتمع أهل التمرة جميعا وانضمت إليهم رشيدة زوجة سامى ، وفوزية زوجة صميدة التى تزوجها فى القاهرة ، وروحية زوجة محمود التى تزوجها فى القاهرة أيضا . وكان الجمع كبيرا ولكن غرفات شملول لم تضق بهم . وقد بدأ الاجتماع بترحاب مصرى صادق حتى وإن كان القادمون يلف قدومهم الكثير من الغموض المبهم غير الواضح . ومر الشاى على الجلوس . حتى إذا انتهوا منه بدأ سامى فتعرف على أعمال صميدة ومحمود . ثم بدأ الحديث :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم .

وقالوا جميعا : بسم الله الرحمن الرحيم .

وقال سامى :

ـ إن الصمت على الظلم ضعف . وأنتم قد ظلمتم ، وكنتم رجالا وأبيتم أن تذعنوا للظلم وخرجتم من دياركم وقدمتم إلى مصر .

وهوم الصمت على الجميع فيه كثير من الذهول ، وكثير أيضا من التشوق وانتظار الحديث المقبل .

ـ ربما تكونون الآن فى خير حال . بل إنكم لا شك قد استطعتم أن تجعلوا الحياة تستقر بكم استقرارا ما كانت لتستقره فى التمرة .

وترددت الحمد لله . وأكيد وأما بنعمة ربك فحدث .

واستأنف سامي حديثه .

ـ الحمد لله . ولكن أنا وأخى هذا وقع علينا الظلم ولا نستطيع له رفعا إلا بمعونتكم .

وترددت : ماذا . وكيف . وعجيبة . من المستمعين .. وأكمل سامي :

ــ إنكم خرجتم من التمرة ولم تخسروا هناك إلا البيتين اللذين خرجتم منهما ، وبنيتم حياتكم هنا جديدة مشرقة ، أما نحن أنا ومأمون فنعتبر كل ظلم وقع من أبينا على إنسان كأنه وقع علينا . وأنا وأخي وزوجتي أيضا نرى أن سكوتنا على ما يصنعه أبي أمر لا يرضاه الله ، بل إنه يقول إن الشرك لظلم عظيم ، فالظلم العظيم إذن هو عند الله شرك .

وقال محمود :

ــ أتريد أن تحارب أباك ؟

وقال سامي :

ــ معاذ الله . ما كنت لأحارب أبي .

وقال شملول :

ــ عجيب أمرك يا أستاذ سامي . ماذا تريد أن تصنع ؟

وقال صميدة :

ــ لا وسيلة لك إلا محاربة الظلم .

وقال سامي في بساطة :

ــ بل هناك وسيلة أجدى وأقوم .

وصمت الجميع في سكون ، وقالت روحية في حب استطلاع .

ــ كيف ؟

قال سامي :

ــ منع الظلم أن يقع .

وسأل شملول :

ــ وكيف تستطيع ؟

وقال سامى :

ـ بل قل كيف نستطيع . فإننى بغيركم لا أستطيع أن أصنع شيئاً . إما أن تنضموا إلىّ أو أترك الأمر كله .

وتصايحت أصوات الجميع من نساء ورجال ، وتناثرت الألفاظ والجمل واختلطت وتشابكت وركب بعضها فوق بعض . كيف ؟ هل هذا معقول . نذهب للنار بأرجلنا . ونحن ما شأننا . أبعد أن أنقذنا اللّه نرجع مرة أخرى ؟

وعلت الابتسامة وجه سامى ومأمون ورشيدة ، وانتظر ثلاثتهم حتى لم يجد أصحاب البيت بدا أن يصمتوا ، وقال محمود :

ـ إن ما تقوله عجيب يا أستاذ سامى . إنك تأتى إلينا فى مستقرنا بمصر وتطلب إلينا أن نعود مرة أخرى للتمرة . وقد حاول أبوك أن يقتلنى هناك واغتصب بيوتنا . ونحن قانعون بما نحن فيه اليوم . فنحن نعيش حياة آمنة لا نحتاج إلى مال ، ولدينا أبناؤنا ونريد أن نربيهم .. وتطلب إلينا أن نعود إلى رجل طاغية معه الرجال والسلاح . وقلبه ـ ولا تغضب ـ بلا رحمة على الإطلاق . أهذا معقول ؟

ـ إن لم تردوا الظلم عن أهل قريتكم فمن يرده ؟

ويقول صميدة :

ـ فليقع الظلم ما شاء له أن يقع . ما شأننا نحن ؟

ويقول سامى :

ـ شأنكم أنكم نجوتم من هذا الظلم وأنكم رجال وأنكم تملكون المال . وأنتم مسلمون واللّه يقول : والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون .

ويقول محمود :

ـ ولماذا لا تحاول قرية التمرة برجالها أن ترد هذا الظلم ؟

ويبتسم سامى ويقول :

ـ إنهم يعيشون فى جوف الهول ولا يتصورون أن هناك طريقا لمقاومة الظلم أن يقع . وهم جهلاء وأنتم ونحن أصبنا شيئا من العلم . وهو فقراء وأنتم ونحن أصبنا شيئا من الغنى .

ويقول محمود :

ـ أستاذ سامى لا تؤاخذنى . هذه أول مرة نراك منذ كنت طفلا ولا نعرف عنك شيئا . وأنت تطلب منا شيئا لا يتصور أحد أن ابنا يقوم به إزاء أبيه . فكيف يمكن أن نطمئن أنك لا تجرنا إلى مكيدة يدبرها لنا ـ ولا مؤاخذة ـ أبوك .

وقبل أن يستطرد يقول شملول :

ـ أستاذ سامى ، اسكت أنت فأنا الذى سأتكلم ، محمود أنت أبعد ما تكون عن الصواب . هل تتصور أننا عظماء لدرجة أن يرسل لنا زين الرفاعى ابنيه وزوجة ابنه الأكبر ليدبروا لنا مكيدة بعد هذه السنوات الطوال التى تركنا فيها التمرة . ما الذى يجعله يهتم بنا كل هذا الاهتمام ؟

ويقول محمود :

ـ ولماذا لا يكون الأستاذ سامى مختلفا مع أبيه ويريد أن يستغلنا .

ويقول ضميدة :

ـ أمرك عجيب يا محمود يستغلنا فيم ؟ إنك سمعته مثلما سمعناه وهو يرفض كل الرفض محاربة أبيه . وسمعته مثلما سمعناه وهو يقول إنه يريد أن يمنع الظلم .

ويقول شملول :

ـ يا محمود ، نحن تجار وصناعتنا أن نعرف الناس من سيماهم التى فى وجوههم . أوجه الأستاذ سامى هذا يوحى إليك بأنه رجل يريد أن يخادعنا .

وتقول صبيحة :

ـ أستغفر الله العظيم . وقد نسيت شيئا آخر يا محمود .

ويقول محمود وقد بدأ يقتنع بالحجج المنهالة عليه :

ـ خيرا ؟

وتستطرد صبيحة :

ـ إننا على اتصال دائم بقرية التمرة . ونعرف وتعرف معنا أن العلاقة بين زين وابنيه على أحسن ما يكون .

ويقول سامى :

ـ اسمعوا أنا سأترككم لتفكروا وتتدبروا الأمر حتى إذا اطمأنت نفوسكم تماما أرجع إليكم . وشملول يعرف كيف يجدنى .

وقال محمود فى حسم عجيب :

ـ بل إنك لن تقوم من مكانك هذا إلا وقد اتفقنا على كل التفاصيل .

ويقول شملول :

ـ الآن يا محمود قلت ما يجب أن يقال .

ويقول صنميدة :

ـ إن الذى يراك ولا يطمئن كل الاطمئنان إلى صدقك ، يكون غبيا غير جدير بأن يكون إنسانا .

وتقول صبيحة :

— إننا كلنا معك . وإذا لم يعاونك رجالنا عاوناك نحن . ما رأيك يا روحية . وأنت يا فوزية .

وتقول روحية :

— نحن معك يا أستاذ سامى .

وتقول فوزية :

— ليس آدميا من لا يقاوم الظلم .

ويضحك الجميع ويقول صميدة :

— أرأيت يا أستاذ سامى ؟ لم يصبح لنا بعد قولهم أن نقول شيئا .

ويقول شملول :

— لم يبق إلا أن نعرف علام عزمت .

ويقول سامى :

— لقد كان أبى يرسل لى فى كل شهر مائة جنيه ، ويرسل مثلها إلى أخى مأمون .

وتتعالى ألفاظ الدهشة . ويستطرد سامى :

— لم ننفق منها على أنفسنا شيئا فقد كنت أنا ومأمون ورشيدة نعمل إلى جانب الدراسة . كل ما جمعناه مرصود لما ننوى أن نفعل .

وتعالت أصوات تتساءل .

— اشتريت بكل النقود سلاحا .

— سلاح وسيارة . أما السيارة فلها عملها . أما السلاح فلن نطلق منه رصاصة واحدة على إنسان .

— ماذا ... ماذا تقول ... كيف .... وما نفع السلاح إذن .... ما لزومه ؟

ويقول سامى فى هدوء :

— سنرد به الظالمين عن ظلمهم .

وتتعالى كيف مرة أخرى .
— أنتم جميعا تعرفون فواز الشيمى .
— نعم .
— لقد رتب لى عيونا فى رجال أبى .
— وإذن ؟
ويقول سامى :
— حين نذهب جميعا إلى المركز نتكلم فى التفاصيل .
ويقول محمود :
— جميعا .
ويقول سامى :
— جميعا ... لقد رتبت كل شىء .
ويهوم الصمت على الجميع ... صمت فيه سعادة غامرة . وفيه تشوق وتطلع إلى المستقبل ورضى عنه واطمئنان أيضا .

كان من أيسر الأمور على سامي أن ينتقل إلى مدرسة المركز ، فمن ذاك المدرس الذى يعمل فى مدرسة بأقصى الصعيد ولا يتمنى أن ينتقل إلى القاهرة وخاصة إذا كان هو نفسه من أبناء القاهرة . وهكذا تم البدل بينه وبين وصفى عبد القوى فى سهولة بالغة . وكذلك كان يسيرا على رشيدة أن تطلب إجراء البدل مع تفيده السلامية .

أما مأمون فقد اختار مكتب لطفى مصطفى المحامى ليقضى به مدة التمرين ، وقد رحب به لطفى كل الترحيب . وكيف لا وهو ابن زين الرفاعى ووجوده بالمكتب سيجعل أهالى قرية التمسرة والمنطقة المحيطة بها يتدفقون على المكتب فى جميع شئونهم القانونية .

أما صميدة وشملول ومحمود فقد تركوا زوجاتهم بالقاهرة ونهدوا إلى المركز يتجمعون تحت الراية التى رفعها سامى من نص الآية الكريمة : « والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون » .

* * *

وهش زين الرفاعى حين رأى ابنيه ومعهما رشيدة يدخلون البيت على غير توقع وبعد غياب سنوات عن البلدة ، أما أمهما رتيبة فقد راحت تحتضن ابنيها ومعهما رشيدة ، والدموع تهمى من عينيها ، كما لقفتهم أختهما عزيزة بشوق صادق متدفق . وحين هدأت بهم الجلسة قال زين :

— يا أهلا ... يا مرحبا ... لقد أصبح غريبا علىّ أن أراكم فى البلدة .

وقالت الأم وهى تجتذب نفسا مطمئنا من أعماق أمومتها :

— يا أخى بركة ... البيت من غيرهما ليس بيتا .

ويضحك الإخوة الثلاثة وتقول عزيزة :

ــ أمى رتيبة لها حق . الحياة بعيدا عنكما لا تستحق أن تعاش . أظن هذه أول مرة تأتين فيها إلى البلدة يا رشيدة ؟

وتبتسم رشيدة وتومى برأسها أن نعم ، وتقول رتيبة :

ــ أهذا كلام ؟ أهلا بك فى بيتك يا بنتى ... يا أهلا يا مرحبا، ألف أهلا .

ويقول زين :

ــ ولكننى فقط أريد أن أطمئن ... أهى زيارة ؟

ويبتسم مأمون ورشيدة ويقول سامى :

ــ بل إقامة .

وتختلط الدهشة بالخوف فى وجه رتيبة ، ويقول زين :

ــ ماذا ؟ !

وتلحق به رتيبة فى سرعة متوجسة :

ــ وشغلكم ؟

ويضحك سامى ورشيدة ومأمون ، ويقول مأمون :

ــ أتخشين أن نخرج من أعمالنا كل هذه الخشية ؟... من يسمع هذا يحسب أنكم تعيشون من مرتباتنا .

وتقول رتيبة فى جدية :

ــ الإنسان بغير عمل كارثة .

وتقول رشيدة ممعنة فى إخافة حماتها :

ــ وماذا يجرى إذا أنا ساعدتك فى البيت وساعد سامى ومأمون عمى فى ...

وتقاطعها رتيبة وقد كادت أن تشعر بالمزاح فى الحديث :

ـ يا بنتى لا قدر الله ، لا أنا ولا عمك نحتاج إلى مساعدة .

ويقهقه سامى ومأمون ورشيدة ويقول سامى :

ـ لا تخافى ... إننا فى أعمالنا لا نزال .

ويقول زين :

ـ أهذا معقول ... أجاد أنت فيما تقول ؟

ويقول مأمون :

ـ كل الجد . سامى ورشيدة انتقلا إلى مدرسة المركز ، وأنا ذهبت قبل أن أجىء إلى هنا واتفقت أن أقضى سنوات التمرين فى المحاماة بمكتب لطفى مصطفى .

ـ متى جئتم ؟

ويقول سامى :

ـ بالأمس .

وتقول الأم .

ـ وأين قضيتم ليلتكم ؟

وتقول رشيدة :

ـ أنت ست عظيمة ... بيت المركز كأنه لم يترك .

وتضحك رتيبة .

ـ كنت أرسل عزيزة ومعها خادمتها سعدية ينظفانه كل أسبوع ، وكأنى كنت أنتظر أن تجيئوا إليه فى أى لحظة .

ويقول سامى :

ـ ظللت كل هذه السنوات تنظفين البيت كل أسبوع ؟

وتقول رشيدة :

ـ بحاسة الأم .

وتقول رتيبة :

ـ الأمر لا يستأهل كل هذه الدهشة . من الطبيعى أن نحتاج إلى أشياء من المركز كل أسبوع ، فما البأس أن تذهب عزيزة ومعها سعديه بالسيارة ويمران بالمنزل تنظفانه .

وتقول رشيدة :

ـ كنت أظن أننى سأجد مشقة كبيرة لأجعله صالحا للمبيت فوجدته أنظف من أى بيت يسكنه أصحابه .

ويقول زين وقد خالجه بعض الدهش :

ـ ولكن ما الذى جعلكم تقررون هذا القرار وتنتقلون إلى هنا بغير مقدمات ؟

ويبتسم سامى وهو يقول :

ـ المقدمات كانت فى نفسى منذ عرفت أننى لم أرتكب جريمة ، وأن زميلى منيب والحمد لله لم يصب بسوء .

ويقول زين :

ـ ياه ... أما زلت تذكر ؟

ـ وهل أستطيع أن أنسى ؟

ـ لقد جعلت من هذه الحكاية التافهة أمرا خطيرا .

ويطرق سامى قليلا ويقول لأبيه متوخيا ألا يتخذ موقف الواعظ :

ـ يا أبى لو كان زميلى هذا قد مات لما رأيت أنت وأمى وجهى مدى الحياة .

وذهل زين وقالت رتيبة :

ـ بعد الشر .

وقال زين :

ـ إلى هذه الدرجة ؟

وقال سامى فى حسم :

ـ وأكثر .

وتقول رتيبة :

ـ ألف حمد وشكر لك يا رب .

قضى سامى ومأمون ورشيدة ثلاثة أيام بالقرية ثم أخذوا سمتهم إلى المركز ، وصحبوا معهم فواز الشيمى الذى تمكن فى هذه الأيام الثلاثة أن ينفذ كل ما أمره به سامى .

عرف فواز الشيمي فيما عرفه أن زين أعطى أمره إلى رجاله بسرقة بهائم كدواني البرقوقي . وكان رجال زين في انتظار أن يحدد لهم العمدة موعد هجومهم على بهائم الكدواني .

وقد رتب فواز أن يأتي إليه نجيب رسلان بالموعد الذي تعين لهم .

وما أن استقر سامي وزوجته وأخوه بالمركز حتى كان قد أعد سكنا ملائما للقادمين من مصر ، وقد هدأ بهم المقام في مسكنهم الجديد وكانوا يجتمعون كل مساء في بيت سامي ، ويتبادلون شتى الأحاديث . فقد كان ما ينتوون القيام به متفقا عليه ولم يعد محتاجا لأي حديث جديد . بل إنهم شعروا أن الحديث فيما هم مقبلون عليه سيجعل اتفاقهم مائعا . فكثرة الحديث تفتر عزيمة العمل .

في إحدى الأمسيات بينما هم يجتمعون عند سامي طرق الباب وقام إليه فواز .. وفتحه .. وهم ينظرون . وما لبث أن خرج فواز من الباب لحظات ثم دخل وأقفل الباب وقال في هدوء حازم :

ـ الموعد غدا .

* * *

كان رجال زين الرفاعي مدربين على أعمالهم غاية الدربة . وكان كل منهم يعرف دوره وكان يؤديه في إتقان وبراعة حتى أصبح كبيرهم خطاب الضبع في غير حاجة أن يعطي أوامره عند بدء العملية ، بل يكتفي بجملة واحدة تعودوا أن يسمعوها في صوته الهادئ المنخفض الواثق :

ـ كل واحد منكم يعرف ما سيعمله .

ـ ولم يكن من المحتم أن يجيب كل فرد منهم جملته وقد يكتفى أحدهم أن يقول :

ـ توكل على الله .

أو يقول آخر :

ـ توكل .

ثم يمضى خطاب إلى غرفة السلاح فى بيته فيفتحها ، ويدخل كل منهم إلى سلاحه الذى يعرفه . وهم جميعا يصرون ألا يستعملوا إلا السلاح الذى مردوا عليه . وقد كان بعضهم يقول فى فخر أن بينه وبين سلاحه لغة لا يفهمها إلا هو وسلاحه .

وكانوا ستة نفر لهم عند هجومهم طقوس غير مكتوبة ، وإنما هى تكونت بطول الدربة وبكثرة العمليات . فكان لكل منهم ملبسه الذى خصصه لليالى العمل . وكان كل منهم يستبشر بملبسه هذا . فكان لا يلبسه إلا فى الليلة التى يعمل فيها حتى لا تهلكه كثرة الاستعمال .

وكانوا إذا ساروا إلى مهمتهم ذهبوا إليها أزواجا ، وكان كل واحد منهم . يعرف رفيق عمله . وكان خطاب يخبرهم فى كل مرة بمكان تجمعهم يقصدون إليه من طرق شتى ومن منافذ متفرقة .

* * *

كان كدوانى البرقوقى قد تاجر فى البهائم فى عامه هذا وعادت عليه التجارة بربح يتجاوز العشرة آلاف جنيه . وقد عرف زين بهذا النبأ فاستقدمه إليه .

ـ مرحبا يا كدوانى .

ولم يكن كدواني ليغبى السبب الذى استدعاه زين من أجله ، ولكنه شأن الدهاة من أبناء القرى يعرف كيف يخفى مشاعره فهو يقول لزين وكأنه مطمئن :

— رحب الله بك يا حضرة العمدة .

— لنا زمان لم نرك .

— علم الله يا حضرة العمدة كم أنا مشوق إليك .

— فماذا منعك يا أخى أن تزورنا . هل نسيت الطريق إلى بيتنا .

— يا حضرة العمدة ، نحن نعتبر بيتك بيتا لنا جميعا والإنسان لا يمكن أن ينسى الطريق إلى بيته .

— فما الذى شغلك عنا يا ترى ؟

— لم تفلح زرعة القطن فاضطررت أن أرقعها ، فكنت أقضى يومى كله فى الغيط وأعود إلى البيت بعد المغرب مهدودا لا أكاد أصيب من الطعام شيئا ، وأوشك أن أسأل أهل بيتى أن يحملونى إلى الفراش .

— كان الله فى العون .

— أطال الله عمرك يا حضرة العمدة .

— إذن فالذى سمعناه ليس صحيحا .

— خيرا يا حضرة العمدة ، وما الذى سمعت ؟

— لا داعى لقوله ما دام الأمر كذلك .

وأدرك كدوانى أن الحديث قد بلغ الغاية المقصودة منه ومن الاستدعاء أيضا فهو يقول :

— وما البأس أن تقول يا حضرة العمدة ، والأمر كله كلام بن عم حديث ، وها نحن أولاء نسمر .

ـ كنت سمعت أنك ـ فيما يقولون ـ تاجرت فى البهائم .

ويبتسم كدوانى وكأنه لا يعير الحديث التفاتا .

ـ آه ... أتقصد إلى هذا ؟... لا وشرفك لا تجارة ولا يحزنون... الأمر لا يزيد عن كم رأس اشتريتها وأطعمتها بضعة أشهر وبعتها . وشاء الله أن يكرمنى فى قرشين اشتريت بها كم بهيمة أخرى لأتاجر فيها .

ـ أحد عشر ألف لا يقال عنها قرشان .

ـ أنت تعرف كم يبالغ الناس يا حضرة العمدة .

ويستعيد العمدة صوته الآمر المتسلط بعد أن ظل طوال حديثه يعمل صوتا هادئا منسابا يكاد من يسمعه يظن أنه ينبعث عن نفس طيبة شفيفة لا أثر فيها لقهر أو عدوان .

يقول العمدة فى نغمته الأصيلة التى يعرف أهل القرية معنى صدورها عنه .

ـ بل أنت تعرف يا كدوانى أنك إذا شربت شربة ماء فى بيتك فأنا أعرف تماما كم قطرة ماء شربت .

ـ ليس هذا بجديد علينا يا حضرة العمدة .

ـ فمكسبك إذن أحد عشر ألف جنيه وخمسين جنيها أيضا حتى تفهم أننى ما زلت أعرف كم قطرة شربت فى بيتك .

ـ وإذا فرضنا يا حضرة العمدة أن ما تقوله صحيح ؟

ـ يكون عليك أن تدفع لى خمسة آلاف جنيه .

ـ فى أى شرع هذا ؟

ـ شرع زين الرفاعى .

ـ ولكنه ليس شرع الله يا حضرة العمدة .

ـــ ألست أنا الذى أحمى تجارتك ، وأنا الذى أمنع عنك اللصوص أن يسرقوا بهائمك جميعا ، وأمنع الخراب أن يحل بك ؟

ويقول كدوانى فى نفسه : وهل هناك خراب أكثر من الذى تصنعه ؟ ويصمت ولكن خاطرا عجيبا يلح عليه . كيف يستطيع اللصوص أن يجعلوا إجرامهم شرعيا له منطقه ، وكيف يلبسون الباطل أثواب الحق فتطمئن نفوسهم إلى أن ما يصنعونه بالناس عدل لا عدوان فيه ولا افتئات ، ولا تدمير فيه لإنسانية الإنسان .

يصمت كدوانى ولكن قليلا ما يصمت ، فالعمدة لا يترك للسكون فترة أن يخيم عليهما فهو يقول فى صوته الجبار :

ـ ألست أنا الذى يمنع محصولك أن يحرق أو يسرق وبيتك أن يهدم أو يحرق أيضا ؟

ويطرق كدوانى ويقول فى مخادعة وفى غير اقتناع :

ـ وهل يستطيع أحد أن ينكر يا حضرة العمدة ؟

ويعود العمدة إلى مواصلة جبروته :

ـــ ألا أحتاج إلى رجال لأحميك وأحمى أهل القرية معك ؟ وهؤلاء الرجال ألا يحتاجون أن يعيشوا وقد تركوا أعمالهم وتفرغوا للمحافظة على أرواحكم وأموالكم ؟ من أين أنفق عليهم ومن أين ينفقون هم على عيالهم إذا كان كل واحد منكم سيربح ما طاب له الربح ولا يدفع لنا ما نحافظ به على رأس ماله وأرباحه ؟ بل إننا أيضا نحافظ على حياتك وحياة كل الذين يقومون بأعمال تعود عليهم بالربح . فلولا الرهبة التى يحسها المجرمون حولنا لقتلوكم واستولوا على ما تحملون من أموال .

ولا يتكلم بلسانه كدوانى ... ولكن ... يا ابن الكلب إن أحدا لا يسرقنى إلا أنت ، وأحدا لن يقتلنى إلا أنت ، وأحدا لن يحرق زرعى أو بيتى أو بهائمى إلا أنت . إذا أنت حميتنى من نفسك فأنا فى غير حاجة إلى حماية . فليس هناك مجرم إلا أنت ، ولا عاتية ظالم إلا أنت .

وحرك كدوانى لسانه فى فمه :

ـ أمرك يا حضرة العمدة .

وفى حسم قاطع يقول زين :

ـ خمسة آلاف جنيه .

ـ أهذا معقول يا حضرة العمدة ؟

ـ هذا هو المعقول الوحيد .

ـ أنا لا أستطيع أن أدفع أكثر من ألفين .

وفى صوت آمر يقول زين :

ـ خمسة .

ـ إذن فاصبر علىّ .

ـ حتى متى ؟

ـ حتى أبيع البهائم التى عندى .

ـ ولماذا لا تبيعها الآن ؟

ـ أخسر فى بيعها كل ما ربحته ولا أستطيع أن أدفع حتى الألفين .

ـ متى تستطيع الدفع ؟

ـ بعد ستة أشهر .

ـ ماذا ؟

ـ خمسة أشهر .

— اسمع . أنا سأمهلك هذه الأشهر الخمسة ، ولكنك إذا تأخرت يوما واحدا تكون الجاني على نفسك .

* * *

وتأخر كدواني وتحدد الموعد . وخرج رجال العمدة وقصدوا إلى بيت كدواني والقمر ينير لهم الطريق فهم لا يخشون أن يراهم أحد . وكان بيت كدواني متسعا وقد حرص منذ بدأ يتاجر في البهائم أن يسد باب الحظيرة الخارجي بالطوب ويجعل البهائم في دخولها وخروجها تمر عبر باحة البيت . ولكن شيئا من هذا لم يقف عائقا دون رجال زين . ماهي إلا دفعة حتى كان باب البيت مفتوحا على مصراعيه وكان كدواني وزوجته شفيعة وأبناؤهما الثلاثة سعداوي وبغدادي ونبيل جالسين إليهم . وقفوا جميعهم ، ورأوا رجال زين ملثمين ولكنهم عرفوهم جميعا فردا وكان خطاب وأعوانه يعلمون تمام العلم أن كدواني يعرفهم فما راعهم هذا ولا مر بخاطر أحدهم أن يفكر في هذا الأمر .

ودخل الرجال إلى حظيرة كدواني وكأن البيت خال بهم وكأنهم ما رأوا صاحب البيت ولا زوجه ولا أبناءه وبدأوا يخرجون البهائم ولم يجد كدواني شيئا يصنعه إلا أن دعا زوجته وأولاده أن يدخلوا أمامه إلى حجرة أخرى ، وأقفل الباب على نفسه وأسرته فقد أصبحت حياته وحياة أسرته في هذه اللحظة هي كل ما يحرص عليه ولتذهب البهائم وثروته جميعا إلى الجحيم .

خرج خطاب في المقدمة يقود جاموسة وتبعه الرجال الخمسة يقود كل منهم جاموستين وما أن خرج آخرهم حتى فوجئوا بخمسة شخوص يلبسون السواد ما يبين منهم شيء يحيطون بهم

ويطلقون الرصاص حواليهم وكأنه مطر منهمر ويتولى العتاة الخوف الراعد وتتواثب البهائم فى أيديهم توشك أن تقتلهم ويقف بهم الذعر جامدين وكأنهم تماثيل من جماد .

ويواجههم صوت لا يعرفونه ... إنه صوت شملول . ومن أين لهم أن يذكروا شملول أو صوت شملول .

— القوا السلاح .

ودون تفكير يلقى الرجال الستة سلاحهم . ويطالعهم الصوت أمرا مرة أخرى .

— أعيدوا البهائم إلى مكانها ، و ليبدأ أقربكم من البيت فى إدخال ما معه ثم يتبعه الذى يليه .

وينفذون الامر فى دقة الحريص على حياته ، حتى إذا أدخلوا جميع البهائم يقول شملول :

— قولوا لحضرة العمدة أنكم ستجدوننا دائما عند كل عملية تقومون بها .

ويقول خطاب فى صوت راعش :

— ماذا ؟

— ما سمعت يا خطاب . أبلغ العمدة ذلك . هيا اذهبوا وإذا التفت أحدكم قتلناه فى لحظة ... اذهبوا واحذروا أن يلتفت أحدكم خلفه .

وفى مثل لمح البصر يولون الفرار .

ويجمع سامى ومأمون ومحمود وشملول ومعهم رشيدة وهى فى ملابس الرجال الأسلحة الملقاة ، ويخفيهم الليل عائدين إلى المركز

بالسيارة التى أعدها سامى فيما أعد حين استقر رأيه على أن يكون من أولئك الذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون .

* * *

تعوّد زين كلما أمر بعملية أن يجلس فى غرفة خاصة بـالبيت لها شباك على الطريق ، ينتظر أن يأتى خطاب أو غيره من مجرميه إلى هذه النافذة فيطرقها أربع طرقات إن كانت العملية تمت بنجاح ، أو يطرقها ثلاث طرقات إذا حال دون إتمام العملية حائل .

وحين سمع زين أصوات الرصاص دهش وانتظر بالغرفة ، وكانت رتيبة تجلس معه فيها وقد تعودت ألا تسأله عن هذه الطرقات منذ أول مرة سمعتها فيها وسألت :

— أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . من هذا الذى يطرق فى مثل هذه الساعة ؟

فأجابها زين فى حسم قاطع وبصوته الذى عرفته حين ينقلب زوجها من إنسان أنيس إلى شيطان مريد .

— لا شأن لك .

وكانت فى ليلتها تلك تدرك بحسها وبطول المعاشرة أنه ينتظر ذلك الطرق المبهم . وحين سمعت أصوات الرصاص تأكدت أن حدسها صادق .

ولم يطل بها الانتظار فسرعان ما طرق النافذة ذلك الطارق ... ورأت زوجها يتسمع فى اهتمام بالغ ، وحين انتهت الطرقات الثلاث ظل لحظات طوالا يتسمع فلم يصل إلى أذنيه إلا أصوات أقدام تبرح النافذة .

ورأت الدم يعلو وجهه حتى أصبحت عيناه وكأنهما جمرتان ملتهبتان . وحين قاما إلى النوم أحست به طوال الليل والفراش يقلبه لا يقر له قرار ، حتى نفذت إلى الحجرة خيوط الشمس الأولى فإذا زوجها منتصب على قدميه ، ودون أن يتناول إفطاره كان قد ترك البيت وقصد إلى مجلسه في الدوار .

وما أن استقرت به الجلسة حتى وافاه خطاب وروى عليه ما حدث . وقبل أن يتم الحديث يصعد الدرجات القلائل كدواني خائفا يتكفى ، ودون تحية يصيح :

ـ البهائم معى فى الخارج يا حضرة العمدة .

وينظر إليه زين مليا ... ماذا يمكن أن يحدث لو أنه أخذ هذه البهائم . إن المجرم حين يحيط به التهديد يصبح أشد الناس خوفا وهلعا . كيف أضع هذه البهائم فى بيتى . إن قوما صنعوا ما صنع هؤلاء بالأمس لا يقف دونهم شيء . هيهات أن يكونوا خمسة أو عشرة بل لابد أن وراءهم مددا عتيدا . وما أظنهم بالذين يغضبون من أجل كدوانى ويبذلون كل هذا الجهد الذى بذلوه لمجرد المحافظة على بهائمه ، فما كدوانى بالنسبة إليهم إلا فرصة اهتبلوها ليعلنوا لى عن وجودهم .

ويطرق زين ويطيل الإطراق . ثم يرفع رأسه إلى كدوانى .

ـ ارجع إلى بيتك وخذ بهائمك معك يا كدوانى .

ـ أنا لا شأن لى بما حدث يا حضرة العمدة . والله على ما أقول شهيد .

ـ أعلم يا كدوانى .

ـ البهائم فى ستين داهيه . أولادى يا حضرة العمدة .

ـــ كدواني تأكد أنني أعرف أنك لا شأن لك بما حدث ، وخذ مني كلمة رجل أنني لن أمسك بما يؤذيك .

ـــ أطال الله عمرك يا حضرة العمدة .

ـــ مع السلامة يا كدواني .

وقام كدواني وهم بنزول السلالم ، ثم توقف فجأة والتفت إلى العمدة مرة أخرى :

ـــ ألا أترك البهائم يا حضرة العمدة ؟

ـــ بل تأخذها معك كما أحضرتها .

ـــ أمرك .

والتفت إلى السلم ثم توقف واستدار ثالثه إلى العمدة :

ـــ وإذا جاء لي فيها مشتر يا حضرة العمدة ؟

وأدرك العمدة أنه يساوم على الإتاوة ، ولكن زين لم يكن في حالة تسمح له بالمفاوضة الآن ... وأين سيذهب مني كدواني ؟... فليبع البهائم . وإذا إنتهيت من هذه البلوى التي ظهرت لي على آخر الزمن فإن يدى تستطيع أن تعتصر منه عشرة آلاف لا خمسة ... قال زين في حسم :

ـــ إذا أردت أن تبيع البهائم فبعها يا كدواني .

ـــ و ....

ـــ وحين أريد المبلغ سأقول لك ... أبق الثمن كله عندك الآن .

ـــ أمرك يا حضرة العمدة . وأين سيذهب المبلغ ؟ إنه عندي تحت أمرك . أحضره عندما تشاء . أمرك يا حضرة العمدة .

وانصرف كدواني وأمر العمدة خطاب أن ينصرف هو أيضا وخلا به المكان . كيف عرفوا بالموعد الذي حددته لكدواني . أهي

صدفة أم أن لهم على عيوننا راصدة . وكيف لى أن أعرف . بل لا بد لى أن أعرف . وما الذى جعلهم يعيدون البهائم إلى صاحبها . من هؤلاء ؟ ما شأنهم ؟

* * *

اندلع الخبر فى القرية فى كل نواحيها ، وتناقلته الألسنة والقلوب والوجوه والفرحة تشيع فى كيانهم كله .

وبدأ الناس يتساءلون ... من هؤلاء ؟ إنهم ليسوا لصوصا . اللصوص لا يعيدون المسروقات إلى صاحبها . وهم ليسوا من الشرطة فالشرطة لا تترك المجرمين المتلبسين دون أن تقبض عليهم . وهم ليسوا غرباء فهم يعرفون اسم خطاب ويعرفون لمن يعمل . وهم ليسوا من البلد فلو كانوا من البلد ما خفى أمرهم على رجال زين . أملائكة هم أم بشر ؟ إنس هم أم هم من الجن ؟

ومن أهل البلدة أعيان حلا لهم أن يروا العمدة فى يومهم هذا . واختلق كل منهم سببا يذهب به إلى العمدة . وكان زين قد استطاع فيما اتيح له من وقت خلا فيه بنفسه أن يجمع ما تمزق منها وما صدعته الحادثة وما تشتت من فكره .

وجدوا العمدة راسيا كأن شيئا لم يقع . وراح يروغ بالحديث إلى شتى مسالك ومختلف سبل . لا يجرؤ أحد من زواره أن يسأله . وفيم السؤال وكيف يستطيع أحدهم أن يقيم جملة متصلة الألفاظ تؤدى المعنى الذى يراد لها أن تؤديه ، وعزم زين على أمر وقطع فيه الرأى واستقر به الفكر .

* * *

وفي بيت سامي جلسوا جميعا ينتظرون فواز الشيمي الذي ما لبث أن جاء وقدم إلى سامي مبلغا من المال هو ثمن السلاح الذي أخذوه من رجال العمدة . وسأله سامي :

ـ كم ؟

ـ خمسمائة وخمسون .

قال سامي وهو ينظر إلى إخوانه :

ـ فيم تقترحون إنفاقها ؟

قال شملول :

ـ الأمر لك .

قال سامي :

ـ إذن هي من نصيب محمود ونصيبك فقد بعتما أرضكما بأبخس الأسعار حتى تهربوا من الظلم .

وقال محمود :

ـ ألا نبقيها معك فقد نحتاج إليها فيما نحن مقبلون عليه ؟

وقالت رشيدة :

ـ أبقها أنت معك وإن احتجنا قلنا لك .

وقال شملول :

ـ ولكن ...

ويقطع سامي النقاش :

ـ انتهى أمر هذه الفلوس ولننظر فيم هو آت ... فواز .

ـ نعم .

ـ تذهب الآن فورا إلى البلدة .. وتعرف ماذا هم صانعون ؟

ـ فورا .

ـ لن يبيت أبى وهو لا يعلم عمن هاجموا العصابة شيئا .

ـ أمرك .

ـ ونحن هنا سننتظر عودتك ، وقد أخذنا أهبتنا للتحرك لحظة عودتك .

ـ أمرك ... سلام عليكم .

ـ عليكم السلام .

عبد الغنى الريدى فلاح ماهر تمازجت هوايته مع حرفته ، وهوايته فى الحياة أن يكون زرعه أحسن زرع فى المنطقة . وقد استطاع بجهده أن يرتفع بملكه من أربعة أفدنة تركها له أبوه الحاج محسن الريدى إلى أحد عشر فدانا . وكان زين الرفاعى يتقاضى منه مائتى جنيه عن كل فدان يشتريه ، كما كان يتقاضى من البائع مثلها . وقد كانت هذه الإتاوة مقررة لا مجال فيها لمناقشة . ولم يحاول عبد الغنى أن يماكس فيها أو يتمرد عليها .

وفى عامه هذا استطاع عبد الغنى الريدى أن يستنبت من ستة الأفدنة التى زرعها قطنا أربعة وخمسين قنطارا . فقد أحسن خدمة الأرض حتى جعل الأرض والبذرة يخرجان أسرارهما الكامنة وأنتج الفدان تسعة قناطير .

وحين استدعاه كان يدرك تماما السبب الذى يقف وراء استدعائه ، وثارت به نفسه وهو فى طريقه إلى دوار العمدة وجعلته يواجه ابتسامة زين التى استقبله بها مواجهة مقطبة رافضة تأبى حتى أن تدارى ما فى نفسه من سخط ورفض .

— مرحبا بزين الرجال .

— الله يرحب بك يا حضرة العمدة .

— أين أنت يا عبد الغنى ... لى زمان لم أرك .

— حضرة العمدة أنا لا أظن أنك استدعيتنى لشوق ألم بك نحوى .

— يا أخى الترحيب بالضيف واجب .

— هذا إذا لم يكن الضيف قادما على رغم أنفه .

ـ وهل أرغمك أحد ؟

ـ نعم يا حضرة العمدة .

ـ من ذاك ؟... إذكر اسمه لى وسترى أى عقاب سأنزله به .

ـ إذن عاقب نفسك يا حضرة العمدة .

ـ أنا ؟

ـ نعم أنت يا حضرة العمدة ، وليس غيرك . فأنا لم أحضر لزيارتك مختارا وإنما استدعيتنى أنت ، وأنا أعلم ماذا يمكن أن يحل بى إذا نكصت عن استدعائك هذا . فأنا فى حضورى هذا إليك لست حرا . وقد كنت أستطيع أن أداجيك وأتغنى بالشوق إليك إلا أننى فى الحقيقة لم أعد أطيق يا حضرة العمدة .

ـ وما لك غاضبا كل هذا الغضب ؟

ـ من تلك الحياة المفروضة علينا فرضا بقوة السلاح يا حضرة العمدة .

ـ فماذا يقول غيرك ؟ إن الله يعطيك ويرضيك وأرضك تنتج أحسن محصول وأنت من أغنى أهل البلد .

ـ أعرف أن هذا ما استدعيتنى من أجله . إن الله سبحانه جل علاه هو العدل المطلق . وهو لا يعطى للكسول أو الخامل . وأنا يا حضرة العمدة أرضيت ربى فى عملى فأرضانى ربى فى محصولى .

ـ أفلا تشكر الله إذن ؟

ـ إننى أشكره وأحمده آناء الليل وأطراف النهار .

ـ أو ليس من الشكر أيضا أن تشارك غيرك فيما وهب الله لك ؟

ـ إن الله يا حضرة العمدة غنى عن العالمين . وهو سبحانه قد حدد الزكاة وأنا أرفعها إلى ذاته العلية كما أمر بها أن ترفع لتعين

الفقير والمحتاج وابن السبيل . وهو سبحانه حبب إلينا أن نتصدق وأغرانا بأن الحسنة التى يقدمها العبد منا إلى أخيه يضاعفها رب الجميع عشرة أضعاف . وهذا أمر بينى وبين اللّه وحده لا يطلع عليه إلا هو .

ـ والذى يحميك من عدوك ويحمى مالك من السارق ؟

ـ أنا يا حضرة العمدة ليس لى أعداء . وأنا أستطيع والحمد لله أن أحمى مالى من السارق .

ـ أتستطيع ؟ !

ـ بإذن واحد أحد .

ـ إذن فلا حديث بيننا .

ـ واللّه المستعان يا حضرة العمدة . إنه هو وحده القاهر فوق عباده .

ـ إذن فلا تبك بعد ذلك يا عبد الغنى .

ـ وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت .

ـ لقد فتحت على نفسك نافذة من جهنم .

ـ إنها بفضلك مفتوحة على المنطقة كلها . ولكن النفس فى كثير من الأحيان تفضل الموت على الذل يا حضرة العمدة .

ـ وأين كانت هذه الشجاعة من قبل ؟

ـ قد يحتمل الإنسان بعض الحين وقد يرضى بشىء من التنازل عن حقه ، ولكن الطاغية حين يسرف فى طغيانه يجعل الحجر يتحرك وتدب فيه الحياة .

ـ إذن سنلتقى يا عبد الغنى .

— وأنا مستعد للقاء . والله يحق الحق ويجعل الباطل بأمره زهوقا . سلام عليكم يا حضرة العمدة .

كان هذا الحديث بعد أن جمع عبد الغنى قطنه ووضعه فى مخزنه . وقد رأى العمدة أن ينتظر حتى يحشوه فى أكياس البيع ليوقع به ما انتوى أن يصنعه .

ويوم وقعت الواقعة على أيدى سامى وصحبه ، كان عبد الغنى قد أوشك على الانتهاء من تعبئة القطن جميعه . كان زين ينوى أن يرسل رجاله بعد يومين ليستولوا على القطن بأكياسه ولكنه وقد نزلت به هذه القاصمة رأى رأيا آخر .

— خطاب .

— أمرك يا حضرة العمدة .

— أنبيت ليلتنا ونحن لا ندرى من هؤلاء الذين صنعوا بنا هذ الصنيع ؟

— أمر سعادتك .

— قطن عبد الغنى .

— نحمله الليلة ؟ !

— الليلة .

— أمرك .

— ولكن انتظر ... لابد فى هذه المرة أن نغير الطريقة التى كنا نتبعها فى السنوات الماضية كلها .

— طبعا ... طبعا يا سعادة البك .

— إذن فاسمع .

— نعم ؟

ـ ما سنتفق عليه الآن لا يعرفه أحد من الرجال إلا وقت تنفيذ العملية .

ـ طبعا يا حضرة العمدة ... طبعا وهل تشك في هذا ؟

* * *

قال فواز لسامى :

ـ كما توقعت حضرتك يا سامى .

ـ طبعا .

ـ قطن عبد الغنى الريدى .

ـ وتوقعت هذا أيضا ... هل أنتم مستعدون ؟

وقال شملول :

ـ بل انتظروا لابد لنا من حديث قبل أن نقوم إلى عملنا .

وقال محمود :

ـ قل .

ـ اقعدوا وفكروا معى .

* * *

كان الذين يستعين بهم خطاب الضبع فى تنفيذ أوامر العمدة خمسة نفر اختارهم خطاب من البلاد المجاورة ، وكانوا جميعا لصوصا صغارا . وكان لكل لص منهم نهجه ومنحاه . وضمهم خطاب فأصبحوا جميعا أعوانا له توحد بهم الطريق .

أما سعفان أبو زغلول فهو من بلدة العسرانية وكان متخصصا فى سرقة البهائم . ولم يكن يبيعها إلا إذا عجز صاحبها أن يدفع عنها الحلوان . وقد كان هذا الحلوان قريبا كل القرب من ثمن البهائم . وكان سعفان أيضا يعمل وسيطا فى السرقات التى يقوم

بها غيره ، وبين السارق والمسروق يظفر سعفان بجزء مما يتفقان عليه . طلبه خطاب فوجد في العمل معه دخلا ثابتا . فرحب بذلك خاصة أن خطاب سمح له أن يمارس سرقاته خارج التمرة فى الأيام التى لا يعملون فيها .

أما إدريس السلامونى فكان قاطع طريق . يسقط على فريسته فى حالك الظلام ويجرده من كل ما معه ، ثم يقيده ويتركه ملقى في مكانه . وكانت وسيلته إلى ذلك بندقية صدئة ، إلا أنها بالنسبة للأعزل سلاح فتاك .

وكان فهيم سمهان من قرية الترابية وصنعته قاتل محترف يقصد إليه كل صاحب ثأر أن يقتل لحسابه من وقع عليه الاختيار . ويقصد إليه أيضا كل من يريد أن يزيح من طريقه عائقا بشريا .

أما عمران القناوى فكان سمسارا فى الأسواق ، وكان هزيلا في سرقاته . فقد كان ينتهز فرصة غفلة من صاحب خروف أو معز أو حتى أوزة . وقد مرن أيضا على نشل الجيوب . وهو ما يزال يسعى سعيه هذا فى الأسواق بجانب عمله الضخم فى عصابة زين الرفاعى .

وخامس الجماعة شهيدى عبد المعين ، وهو من أصدقاء خطاب نشأ كلاهما فى رحاب زين ومرنا فى باحته على كل ما كان يكلفهما به من أعمال .

* * *

كان خطاب وشهيدى وإدريس هم فقط الذين نزلوا من سيارة النقل أمام دار عبد الغنى وشهروا أسلحتهم على الرجال الذين كانوا يعبئون الأكياس القليلة الباقية من قطن عبد الغنى فى غرفة

ببيت عبد الغنى ، وكانوا هم أيضا ثلاثة رجال . وأصدر خطاب أمره .

ـ اتركوا هذا واخرجوا إلى القطن الملقى أمام البيت وضعوه فى السيارة .

وأطاع الرجال العزل وخرجوا إلى القطن الذى كان مكدسا أمام البيت وهموا أن يحملوا أول كيس ، فإذا بسامى يخرج من ورائه ويأمر خطاب وصاحبيه أن يلقوا سلاحهم ، وأردف أمره بضغطة على الزناد قذفت إلى الهواء عدة طلقات وألقى خطاب سلاحه وهو يصيح : سعفان !!

ولكن سامى يقول له فى ثبات :

ـ سعفان وفهيم وعمران مقيدون جميعا . هذه هى أسلحتهم .

ـ وتخاذل خطاب وهو يلقى سلاحه وتبعه شهيدى وإدريس .

وقال سامى :

ـ فك أصحابك . تجدهم خلف البيت . واركبوا السيارة وعودوا إلى العمدة وأخبروه أنه سيجدنا دائما حيث يرسلكم .

هيا ... أسرعوا .

ويصدع خطاب بالأمر ويركبون السيارة وينصرفون .

ولا يعرف عبد الغنى أو أحد من رجاله سامى أو أحدا ممن معه .

وحين يحاول أن يتعرف عليهم يقول له سامى :

ـ ستعرف حين ينبغى أن تعرف . ادخل الآن إلى دارك وأكمل عملك ولا تخش شيئا وتوكل على الله .

* * *

وسار سامى وصحبه عائدين طريقهم . وكان سامى يعلم أن عيون العصابة تسير وراءهم حيث يسيرون .

تحرى سامى أن يطيل طريقه ويتلوى بهم حتى بلغ النهر . وفوجئ رجال زين بسامى ورفاقه يختفون فى جرف النهر ، واستبد بخطاب وعصابته الذهول . وأمرهم خطاب أن ينتظروا فتريثوا بعض الحين ثم تسارعوا إلى النهر فوجدوا سامى قد صنع من بعض حبال شبيه جسر مما يصنعه رجال الجيش عند عبورهم للعوائق المائية . تقدم خطاب وأشار إلى أصحابه أن يتبعوه . وسار خطاب على الجسر وخطا عليه بضع خطوات ، وفى إثره تقاطر الرجال الخمسة . وحين أصبحوا جميعهم فى منتصف الجسر سمعوا صوتا حاسما يقول :

ـ الآن .

فإذا بالجسر تنقطع أطرافه وإذا جميعهم فى الماء ....

* * *

حين سمع العمدة الطرقات الثلاث عرف أن السرقة فشلت مرة أخرى وركبه هم قاتل ، ولكن الطارق لم يكتف بالطرق .

بل صاح :

ـ حضرة العمدة .

وتصامم زين ولكن النداء ألح فنظر العمدة إلى زوجته فرأى وجهها قد كسته الجهامة . وتبين من قسماتها أنها تعرف كل شئ . واستطاعت هى أن ترى فى عينيه نوعا من التساؤل وصمتت فازدادت حيرته وراح يقلب نظره بينها وبين الصوت الآتى له من الطارق .

لأول مرة رأته رتيبة ضعيفا حائرا لا يدرى ماذا يصنع . إنسان إذن هو بكل ضعف الإنسان وهوانه . وليس هو ربا ولا هو إلها . ها هو ذا متخاذل أمامها وهى سيدة بلا حول لها ولا قوة إلا شرف الدخائل وطهر السرائر ووضوح النفس لا تخاف شيئا يتخفى فى كيانها البشرى .

وحين ألح الطارق المنادى قالت هى فى صوت آمر قوى بالحق الذى أحست أنها تتجسده .

ـ انظر فيم يريدك .

وكسجين تحطم عنه القيد قال بصوت يشرخه الرعب :

ـ انتظر . أنا قادم إليك .

وتوقف الطارق عن الطرق وعن النداء ، وقصد زين إلى باب البيت وخرج إلى سواد الليل .

عينان حمراوان ، وبنيان تصدع ، ووجه مكروب ، وشارب متهدل ، وعمامة منداحة على الرأس ، وخوف ووجل واستخذاء ورعب وانزواء . هكذا كان العمدة وهو جالس فى صدر قاعته بدواره . وحيدا كان ليس حوله من أهل القرية أحد . تقتله الوحشة من حجرته كما تقتله الوحشة من داخله .

من هؤلاء ؟! أمن الجن هم أم من البشر ؟ أم قد أرسل الله إليه ملائكة شدادا ينتقمون لكل من أصابهم فى حياتهم وفى أمنهم وفى أموالهم .

أتكون هكذا نهايته وهو الذى عتا ما عتا فى البشر ؟

ألم يكن الموت أرحب يتوارى فى طواياه من هذا الخزى ؟ وكيف يكون مقامه فى قريته من بعد اليوم ؟

الناس جميعا يرونه مسربلا بالخزى والعار .

لقد كانت الجموع فى طريقها إلى المسجد لصلاة الفجر ولا حديث لها إلا الهوان الذى أحاط به . ولم يعد فى الربوع من لم يعرف ما حل بالطاغية من وبال .

فما بعجيب إذن أن يستقبل صباحه وحيدا تحيط به الوحشة من كل جانب ، وتفرى صرخات الرعب كيانه جميعا .

ومن بعيد تتواتر إليه أصوات جموع ما تزال تتعالى وتقترب حتى تصبح ضجيجا عاليا مشتدا ، ثم ينفتح باب القاعة على مصراعيه وإذا بالحجرة المترامية الأطراف تصبح مليئة بالناس . وعلى رأسهم اثنان يحملان السلاح حمل من لا ينتوى أن يستعمله . وقبل أن يفيق العمدة زين الرفاعى يجد السلاح جميعا ملقى أمامه إلى الأرض . ويرفع رأسه إلى من رمى بالسلاح ويرى ... ويل له من الأيام ....

أى إنسان إلا هذين ... أى مخلوق من المخلوقات ... من البشر أو الجن أرحم من أن يرى هذين اللذين يراهما . ويغمض عينيه ويطيل الإغماض ثم يفتحهما ... كونا أى أثنين آخرين ولا تكونا من أرى . ولكن الحقيقة لا تحتمل الشك . إنهما هما وليس غيرهما ... سامى ومأمون ... واقفان هما كجبلين أقامهما القدر فى وجهه ... إن قلت إن سامى ليس ابنى ماذا أنا قائل عن مأمون ابن دمى ؟... أيكون الحق أرفع شأنا من صلة الدم ... وسامى نفسه إنه لا يعرف لنفسه أبا غيرى . بل إنى نسيت من حقيقة مولده إلا أنه ابنى تلقفته وهو رضيع ، وأرضعته من أصبحت فيما بعد زوجتى وأم أخيه وأم ابنى . ما هذا الذى يصنعان بى ؟

وطال الصمت . والابنان ينتظران الأب أن يقول أو يسأل وهو فى غمرة الذهول الصاحى لا ينطق ، والناس جميعا الذين ملأوا الحجرة وما خارجها من بناء وطرق كأن على رؤوسهم الطير .

كان الصمت الذى طال أعظم من كل كلام يمكن أن يقال . ما كان صمتا ذاك بل كان حوارا عجيبا دار بينه وبين ولديه ثم بينه وبين كل فرد من هذه الجموع .

فكلهم أصابه منه ويل وويل . ومن لم يصبه بالفعل والعمل أصابه بالرعب الرادع وبالخوف يسرى من قلوبهم مسرى الدماء ، فما يجرؤ واحد منهم أن يرفع رأسا أو ينطق باحتجاج أو يعالن بتمرد .

وحين طال الحوار الصامت وجد زين نفسه يقول فى حروف متمتمة راعشة :

— أنتما ؟

ويقول سامى :

ـ نعم ... نحن .

وباللسان المتصلب يقول زين :

ـ أنتما من دون الناس جميعا .

ويقول سامى :

ـ كان لابد أن نكون نحن من دون الناس جميعا .

ـ ألم أكن أصنع ما صنعت من أجلكما .

ويقول سامى :

ـ لقد كان ما صنعت وبالا على الناس أجمعين ، ولكنه كان علينا أنا وأخى كارثة لا مثيل لها .

ـ أن يقدم الناس لكما الاحترام كارثة ؟

ويقول سامى :

ـ ليس الاحترام فيما يقدمه الناس من كلمات وحركات ، وإنما الاحترام هو الحب فى داخل القلوب . وقد جعلت الناس جميعا لا تحمل لنا إلا البغض والكراهية والاحتقار . وكان دعاؤهم فى كل صلاة أن يخلصهم الله منك ومنا جميعا . فإنك مهما تحاول أن تمحق حرية الإنسان فإنه على تمام حريته إذا ناجى ربه . وإن دعاء مظلوم يرتفع إلى السماء لا يعادله شئ من أطايب الأرض جميعا .

ـ ألم أكن أجمع المال لكما ؟

ويقول سامى :

ـ لا يا أبت ... لقد كان أيسر المال يكفينا ، وكان الحلال من مالك حسبنا ليكون سترا وعيشة راضية ، ولكنك كنت تفعل ما تفعل لأنك يلذ لك أن تقهر الناس وتكسر كرامة الإنسان فيهم

وهم البشر الذين جعلهم الله سادة مخلوقاته ، فجعلتهم أنت عبيد سلاحك وطغيانك وجبروتك .

وفى هوان اليائس ينظر إلى ابن دمه يستجدى منه الرحمة :

— هذا قولك يا مأمون ؟

— هو قولى يا أبت ولا قول لى غيره .

— هل أنت واثق يا بنى ؟

— كره الله ما تفعل يا أبى .

— أهكذا علمك أخوك ؟

— بل هكذا علمنى ربى ورب أخى .

وأطرق زين ثم قال وهو فى إطراقه وانحنائه :

— وماذا أنتما فاعلان ؟

ويقول سامى :

— ترد إلى كل صاحب حق حقه .

ويقول زين :

— لقد اختلط الحق بالباطل ، ولم أعد أدرى أى الأنصبة لى وأيها لغيرى .

ويقول سامى فى بساطة :

— فمالك جميعا خالطه الحرام فهو جميعه للناس .

وفى مرارة قاتلة يقول زين :

— وأنا وأمك كيف نعيش ؟

فيقول مأمون :

— هذا واجبنا نحن .

وينظر زين إلى سامى الذى يقول :

ـ إننا نحن المسئولان عنك وعن أمنا ، وليس ما اغتصبت من حقوق الناس .

وهوم الصمت مرة أخرى , فيه من الناس تنظر وارتقاب وهو في رأس زين ضجيج وفكر يتزاحم .

وفجأة قال زين في حسم :

ـ سامي .

ـ نعم يا أبي .

ـ وأنت يا مأمون .

ـ نعم يا أبي .

ـ أما أنا فلن أبقى بعد اليوم في هذه القرية .

وساد الصمت لحظات ثم قال :

ـ لتكن أنت العمدة يا سامي .

فقال سامي :

ـ ليس من حقك أن تعين خليفتك ، فإنك لا تملك إلا أمر نفسك .

ـ أترفض .

ـ نعم أرفض .

ـ فمن يكون العمدة ؟

ـ هذا من حق الناس أن يقولوه .

ـ وإن اختاروك .

ـ استعفيهم .

وتعالت الأصوات :

ـ نعم ... نعم .... نريدك أنت .

فإذا سامي يصيح فيهم :

— اصمتوا ... ما هذا الذى تقولون ... لماذا تختارون ابن الظلم والقتل والرعب والجبروت أن يكون رئيسا عليكم ، وأبوه هو من عانيتم منه السنين الطوال ؟ هيهات والله لن أقبل مبايعتكم هذه . فأنتم الآن فى لحظة أنا فيها أبهركم بدفعى الظلم عنكم . وما أردت بها إلا وجه الله . دعونى وقد أديت أنا وأخى رسالتنا نمضى سبيلنا ، واختاروا أنتم من بينكم من ترضون عنه . فإذا ظلم واحدا منكم ... واحدا فقط أهون ظلم ، فأجمعوا رأيكم وغيروه فإنكم إن سكتم عن ظلم هين ما يلبث الظلم الغليظ أن يحيط بكم .

ويصمت القوم ويبدو الاقتناع والرضا على وجوههم ، ثم يلتفت سامى إلى أبيه .

— أبى ... قلت إنك تريد أن تترك البلد .

— نعم إنى تاركها .

— فلا شأن لك من بعد بمنصب العمدة فيها ... فهل لك مال تعيش به حين تذهب ؟

— نعم .

ويلتفت سامى إلى الجموع :

— أتتركون له هذا المال ؟

ويصيح الجميع :

— نعم .

ويقول سامى لأبيه :

— إذن فهو لك .

ويقول الأب :

— وزوجتى ؟

وتخرج رتيبة من حجرة مجاورة :

ـ أنا مع ولدى .

وينظر إليها زين طويلا ثم يقول:

ـ لم أكن أنتظر إلا هذا . فما أحسب أن تزوجتنى إلا لترعى سامى الذى رضع قطرته الأولى من صدرك .

وترتسم لمحة سريعة من الدهشة على وجه رتيبة ... أيكون قد علم ... ولكن ما البأس ؟ الآن لا يهمني أن يعلم أو لا يعلم .

ويقوم زين عن كرسيه وهو يقول :

ـ سأركب السيارة إلى المركز ثم تعود إليكم .

ويقول مأمون :

ـ ألا تريد شيئا يا أبى ؟

وينظر إليه زين طويلا ثم يقول :

ـ لقد وجدت فى سامى أبا ... فأحبه كما لم تحبنى .

ويقول سامى :

ـ بل إننا فعلنا لأننى ومأمون نحبك أكثر من حبنا لأى إنسان فى العالم .

ويبتسم زين وهو يقول :

ـ أحب هذا الذى تصنعان ؟!

ـ ما صنعنا إلا أن جعلناك قريبا إلى الله وكنت عنه بعيدا كل البعد .

ويطرق زين طويلا ثم يقول :

ـ نعم ... أحسبك صادقا ... لقد كنت دائما صادقا ... وداعا إذن .

ويقول سامى :

ـ بل سنلتقى .

ـ لن تعرف مكانى .

ويقول مأمون :

ـ سنلتقى يا أبى .

ويقول زين :

ـ لنترك الزمن يفعل ما يشاء ... كونا سلاما كما كنتما دائما .

ويقول سامى :

ـ لا نستطيع إلا أن نكون سلاما .

ويقوم زين عن كرسيه ويمشى فتنشق الجموع عن طريق له يسير فيه وئيدا ، حتى إذا بلغ الباب الخارجى وجد السيارة تنتظره فيركبها . وحين تسير السيارة تكون الأصوات كلها هائمة فى صمت من ملكوت الحرية المعطرة ، والقلوب كلها خاشعة للحى القيوم .

« تمت بحمد الله »

رقم الإيداع : ٥٣١٧ / ٩٩

الترقيم الدولى : I.S.B.N.

977 - 11 - 1271 - 6

دار مصر للطباعة

سعيد جوده السحار وشركاه

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

الثمن ٣٧٥ قرشا